رياض خليف

أحاديث جانبيّة

رواية

زينب للنشر

الكتاب: أحاديث جانبية
الكاتب: رياض خليف
النوع رواية
الطبعة: الأولى 2019
الناشر: يانبو للنشر والتوزيع
26شارع العربي بوراقبة 8090 قليبية
ص.ب: 54، 8090 قليبية/تونس
(216)72276047 /(216)23188773
Zayneb.edition@yahoo.fr
تصميم الغلاف والإخراج الفني: وديعة قليوز
ر.د.م.ك: 978 – 9938 – 39 – 040 – 7
جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

فيض من فيض

أو عباءة مُهترئة

محمد الجابلّي

يعز القول إلا ما كان منه مُرسلا – على عواهنه- كفيض من فيض، في مقام الصدق كشفا ومكاشفة نجد "أحاديث جانبية" نصا روائيا يتقنع بالهامش ليفضح المتن، متن ما نحن فيه من هرج ومرج وهياط ومياط. أخرج الكاتب جانبا من تلك المرايا المخبأة، تلك التي كانت في الخزائن السرية دونها أقفال وأصفاد، بعضا من جوانب ما تنكر من وجهنا – حقيقتنا- من جمال وقبح ووسامة وتعرج..نحن في أحوالنا الملتبسة بأحلامنا وقنوطنا، بين الواقع والخيال خيط شفيف تتداخل فيه التحقيقات والشهادات وتتناسل الوقائع فوق ركح صغير لكنه بحجم الوطن، من المدينة الجريحة أو الجذل، بين المحارق والانتصارات والادعاءات..

سيدي بوزيد "المبتدأ والخبر"، مدينة الثورة كما وسمها البعض وقدّرت الحكاية أن تكون شاهدة على مسارات متعرجة فيها مفارقات ساخرة لكنها سخرية مثقلة بأوزار الحقيقة المرّة هي من قبيل الرصانة الفاجعة تلك التي وسم بها "أدونيس" سخرية أبي العلاء في غفرانه .

فضاء المدينة كمسرح يضيق بشخوص، فاعلين بأقنعة وأحوال، مثالهم "الحولة" بين زمنين سريعين "متلفعون أو ممسكين بعباءة

مهترئة" هي عباءة الثورة لكنّ فانوس "رياض خليف" ارتأى كشفهم بإزالة أقنعتهم الكرنفالية لا شيء يطلب السارد غير (جمهور وفانوس وعربة وعباءة) حتى تتداعى المشاهد واصلة بين زمنين واضعة شخوصه على حافتين شائكتين يجوز القفز بينهما بارتداء قناع من العباءة، لاشيء يفضح كهدم الجدار الشفيف في استعارة برشتية من مسرح ملحمي لا يمكن لأركانه الاكتمال لأن الواقع بسرعة أنساقه بات أغرب من كل متخيل: (..**ففي غفلة من الجميع وبينما كان كثيرون يصطفّون للحصول على امتيازات التهدئة ويقدّمون أنفسهم للحاكم المخلوع ولزبانيته، رجال سلام وإصلاح وأعيان قوم لهم القدرة على التأثير في النّاس ويقدّمهم الإعلام بصفتهم حكماء المدينة، نزلت عباءة التّاريخ ذات غروب ، فهرول نحوها الجميع وتزاحموا حولها...متبرّكين بها.**

...ما أوسع هذه العربة التي تركها البوعزيزي أمام مقرّ ولاية سيدي بوزيد..! قفز إليها كثيرون واحتشدوا داخلها. تأرجح بعضهم على جانبها وجرى بعضهم أمامها حتى سبقها ...

انقلب الرّاقصون ليلة قبل الهروب ورقصوا من جديد مع الشّعب ...الكلّ يلوّح بعباءة التّاريخ و يلوذ بها...)

حينها فقط، تخرج "الثورة" مسرعة من زحام الشوارع لتكون على مائدة المقامرين، حينها تزول الحقائق لتبدأ مراحل الإفك ليكشف الفانوس السير المزورة " لأفاقين وقوادين ومخبرين"؛ تتسارع الأنساق متجاورة – رغم التضاد- بين ملحمية الشارع التي سرعان ما خفتت وركح صغير فيه بطولات مقدودة من عهر الماضي القريب، فتتناسل المشاهد ليجعل منها الكاتب فضحا لوقائع هشة، أليست الرواية هي تاريخ من لا تاريخ لهم كما ارتأى البعض؟

تاريخ، لكنه تاريخ الرؤى الموجعة ما بعد السطح المنظور الخادع، هناك، في الخلفية العميقة الكاشفة للحجب والأستار-

ومن ذلك استطاع "رياض خليف" أن يصل بين حافتي الماضي والحاضر من خلال منظور روائي يعتمد الشخصية في انتقاء الفاعلين في اللحظتين وأن ينطلق السرد من موكب الصحافة الاستقصائية التي تسعى إلى البحث في جريمة اغتيال "دب الصحراء" وأن ينغلق السرد بعد فصول عدة على حل لغز تلك الجريمة وكشف ما كان فيها وحولها من كذب وتلفيق وتوظيف..ومع كل ذلك ما حف بالمدينة من تقلب وأحوال تجاوزت الأحياء لتطال - زيفا سير الأموات فيما يذكر بأبطال المقامات "كأبي قلمون في كل لون يكون" أو بثورة الشطار والعيارين وما روى "لتوحيدي" من حكايات عجيبة في تبدل الأوضاع واسفا "أسود الزبد" وما يدر منه من غريب الأحوال والأفعال.

كل ذلك يفيض من قلب مدينة الثورة ومن أطرافها ومن حاناتها ومقاهيها...عبر مراوحة بين مداخل توسلها الكاتب كالنبش في المذكرات والتحقيقات والمحاضر والمعاينة من خلال وضعيات الراوي في اختلافها أوفي اندماجها مع شخصية غائبة حاضرة هي شخصية "همام السمرقندي" وأوراقه المبعثرة تلك التي أرّقت السلطات قبيل الثورة وتواصل فانوسها الكاشف للأحوال بُعيدها، وإن كان الراوي بأحواله هو من بعض أقنعة الكاتب ووجوهه فإن شخصية همام بدت لنا الأقرب بما أضفى عليها الكاتب من طريف الإيحاء والغموض-

تلك الأوراق الخطرة التي يمكن أن تكون رواية فاضحة ولو قدر نشرها ستكون عرضة للمنع والتتبع...

(حان الوقت لكشف أوراق همام السمرقندي التي ظلوا يفتشون عنها و يمنعونها...حان الوقت يا همام لنرى كلماتك وشهادتك عما جرى النور...)

ويلامس الكاتب في عالمه ما أسماه النقاد بـ"الميتاروائي" حالات يناقش فيها جوانب من روائية نصه ويزيل ما كان من أقنعة السرد والإيهام في صريح معاناة النص لحظة خلقه كالبحث عن بداية الحلم، مع عبد الله المسرحي الذي يتمرد على ممكنات الخلق الفني ويختفي ساخرا من تلك الممكنات تاركا الكاتب وحيدا غريبا بين أدوات الركح المتخيل: بين (العباءة والعربة والفانوس والجمهور).

خواطر كثيرة أثارها هذا النص الساحر الساخر، ربما ما يعنينا أكثر في باب الاختزال، هو المنظور الروائي الذي شحنه الكاتب بغريب المفارقات التي هي من غريب واقعنا المربك بتداخله، ذلك العجيب الذي نحن فيه، مشهد الراقصين والراقصات من سياسيين ومحللين تلفعوا بعباءة الثورة وطلبوا منا "أن نفقد الذاكرة" حتى نراهم في وضعهم الجديد وأن نتغافل عن خداعهم.

شخصية "العفيف" تخترق حاضرنا بل نكاد نراها في كل منبر وخلف كل مصدح..ذلك الوسيط السمسار ممتدي الخدمات قبل الثورة يتحول إلى ثوري ومحلل وزعيم وخطيب بعدها ...

رواية تقول إننا في "زحامنا الثوري" فقدنا براءتنا وإن "العباءة المبترنة" لا قدرة لها على ستر عورتنا، "أحاديث جانبية" هي من صميم خطابنا المغيب، حين غيبنا الفكر والمعرفة والإبداع والسقنا وراء راقصي المشهد المسطّح وراقصاته ذاك الذي غاب منه الخيال والحلم وغابت منه الممكنات ..

لابد أن نطلق الأنوار حتى نرى جمال القمر، فبعد غنائية الثورة وزخمها الوجداني كان لا بدّ من تصوص شجاعة "تجرد الحساب" ذاتنا وخيالنا بعيدان ترتيب ما تداخل واختل في "هبتنا" المتسرعة..

فالمبدعون يقفون هناك على حافة شائكة يحملون فانوس الحقيقة بنسبيتها ويقلبون النظر تحت عين فاحصة يجيلها عقل ناقد ووقاد يريقها خيال خلاق، وفي مسيرتهم تلك - يصححون ما اختلّ من ذاكرتنا ويكشفون بفضائحية وشجاعة مزيفي التاريخ بعقوده ونقوده ...

هنا نتذكر بما قاله الكاتب الألماني "غنتر غراس" في حفل تتويجه بجائزة نوبل: "قدر الكاتب الحقيقي أن يقف دوما في صف الخاسرين لأن صف الخاسرين هو صف الحقيقة المغيبة في التاريخ البشري"..

الإهداء

...إلى أصدقاء لم يسقطوا بعد

تصدير

"أحياك يا شعب تونس الذي امتحنك الدّهر و امتحنته..."

الشّهيد فرحات حشّاد

"يا ملك النّوار أنا أبكي بالقلب لأنّ الثّورة يزني فيها، والقلب تموت أمانيه..."

مظفر النوّاب

سكاكين

اجعل من صبرك جسراً
وابحث في الطين
عن الطين
يا عاشق إن الأيام
وإنْ لاحت ساكنة لطواحين
يا عاشق إن كذبَ المعشوق
فصدق نفسك لا تفهم ما الحب
فإنّ الفهم بهذي الأيام
سكاكين.

مظفر النواب

(1)

اشرأبّت الأعناق تتابع السيّارة وتحاول أن تقتفي أثرها ونعرف سرّها ورنّت الهواتف تستطلع الأمر بحيرة وفضول.

قال بعضهم: "لعلّها تستبق زيارة مسؤول كبير". وعقّب البعض الآخر ساخرا "من سيأتي الآن والانتخابات مازالت بعيدة؟"

العمدة نفسه فاجأه الخبر. تذمّر وهو يردّ على هاتف أحد رجاله الذين لم تغيّرهم الثورة، مستغربا ونافيا علمه بها ومتحسّرا على زمن كان فيه الآمر الناهي، يرافق سيارات الحرس الوطني ومرشدي الشؤون الاجتماعيّة والفلاحيّة والتنظيم العائلي ويتصدّرها

"لم تكن نملة تتجرّأ على الدّخول دون علمي ودون مرافقتي أنا اليوم فسيّارات تأتي وأخرى تغادر... انفلتت الأمور..."

اصطفّ الجميع هنا وهناك. يطلّون وينتظرون. كلّ يتمنّى لو ترسي أمامه وتوفّر له فرصة العمر ليكشف أوضاعه ويصوّر بؤسه. ولكنّها توارت عن الأنظار...

سيّارة بيضاء عليها لافتة "صحافة" تترنّح بين الهضاب والأودية والمسالك الفلاحيّة. تقتحم القرية الصّغيرة. تخلّف غبارا وأسئلة.

توقّفت أمام حوش الحاج علي، المغلق منذ سنوات. ساحة فسيحة. جدران صفراء شاحبة و باب كبير موصد بالمزلاج وبقايا زرائب وأقنان وأشجار سرو عالية تحلّق فوقها أسراب حمام برّيّ. ضغط السائق مرارا على مكبح السّيّارة فلم يخرج أحد من المسكن وبدأ بعض الرّجال يطلّون من الحقول المجاورة ثمّ تقاطروا بهراواتهم الغليظة...هكذا هم هذه الأسابيع يقتفون آثار الغرباء ويتتبّعونهم بعد السرقات الكثيرة التي استهدفت مواشيهم، يحرسون حقولهم وزرائبهم بهراوات ومصابيح وسكاكين خفيّة. يشعرون بانعدام الأمن وبراودهم قلق كبير...

"صحافة استقصائيّة" هكذا نطق الصّحفيّ وهو ينزل مرتعدا ويعترض أوّل القادمين وعلى كتفه آلة التصوير تراوده هواجس ومخاوف من هؤلاء الرجال الغلاظ...لاذ أكثرهم بالصّمت وتمسّك بأن لا معلومات لديه، خوفا من التّتبّعات ولكنّ بعضهم لم يمسكوا ألسنتهم وراحوا يهذون أمام الكاميرا...

قال أحدهم:

"رحل الحاج علي منذ أعوام حاملا غصّته معه ومتأسّفا على غدر الزّمان. لهث في كل مكان باحثا عن الحقيقة ومتوعّدا بالثّأر فلم تمدّ له يد ولم يظفر بشيء...الرّجال الذين صعدوا إلى الواجهة بعد الثورة لم يلتفتوا إليه أيضا. أشاحوا عنه بوجوههم. هو لا يمثّل بالنسبة إليهم شيئا. فلّاح أمّي لا شأن له بالسّياسة ولا قدرة له على مجاراة الأعيب السياسيين ولا أنصار له. ينحدر من

قرية بعيدة من تلك القرى التي تقاد بسهولة لسذاجة أهلها وبساطتهم. لا يتطلب كسب أصواتهم في المواسم الانتخابية جهدا كبيرا. زيارة واجتماع حاشد في مدرسة أو دكان وعبارات اعتزاز وتقدير لهذا العرش ووعد بانطلاق المشاريع والاستجابة للائحة المطالب المزمنة التي تتردّد منذ عقود وبعض مساعدات اجتماعيّة وتكفي. لا مال له كي يطمعوا فيه. الثّروة التي كان يملكها ورثها وقطيعه الذي كان، لم يستطع مجابهة سنوات الجفاف، فهزل وهزل أكثره وباع بقاياه بأثمان زهيدة. ظل يجري هنا وهناك ولم تمدّ له يد..."

قال آخر:

"أبى لي الحاج علي رحمه الله مرّة قبل أن يقعده المرض أنّ أحدهم عرض عليه أن يسجّل ابنه في قائمة الجرحى والشهداء في مجال المنح والمساعدات بشرط أن يعطيه نصيبا...زعق في وجهه...لست أبيع دم ابني ولا أبتزّ وطني...لست خائنا...هل يعقل بعد هذه السنوات أن أكذب على وطني وأدّعي أنّ ابني استشهد؟...أنا من دفع لأجل الوطن الغالي والنفيس ولم أطلب قيمة المقاومين التي نالها كثيرون والتي تمتع بها من لم يرق له واحدة في العراء لأجل هذا الوطن لم أطلبها ولم أسجل في قائمتها..."

تهامس الرّجال بأصوات خافتة: "كان الحاج علي رجلا...كان رجلا صلبا...لم يبع ولم يساوم".

تبادل أحدهم: "ومن يذكر النضال اليوم؟ لقد احتكروا صفة الرجال وكأن لا نضال قبلهم ولا بعدهم".

قال رجل آخر:

"لم يصدق الحاج رحمه الله ما قيل له يوم الفاجعة وكان كلّما ازداد ألما في صدق ما قيل يزداد حزنا ويشعر بالعار والذّلّ

وتراوده أسئلة موجعة.هل فعلا عشق ابني موسا؟ أيّ ابنة عيّاد هذه؟ هل فعلا كان من زبانية نبيهة بنت عمّار النّحّاس الذي أصبح في قائمة المقاومين؟

تمضي به الأسئلة بعيدا...يوشك أن يصدّق ما سمع ولكنّه يتراجع. للحقيقة وجوه أخرى، لن يسكت عن حقّ فلذة كبده ولن يسمح بتشويهه بحكايات تافهة الغرض منها طمس الحكاية. كاتب الرّئيس والوزراء والولاّة وطاف بالمحامين ودفع الأموال ولكنّه خاب ولم يظفر بإجابة واحدة. طمر الملفّ وضاعت الحقيقة. تبدّدت أمواله وأصابه هزال شديد وخارت قواه.لزم الفراش أشهرا ثمّ تدهورت صحّته حتى غادرت روحه ذات فجر شتويّ كئيب وحزنت عليه القرية حزنا كبيرا.

لام الأهالي بعضهم وهم يشيّعونه لأنّهم لم يؤازروه ولم يقفوا معه في محنته ولم يردّوا له شيئا من جميله حين كان واقفا. كان كريما معهم ويؤازرهم في السّرّاء والضرّاء ويشتغلون في حقله الكبير.

رحل الحاج علي مكلوما وظلّ المجرمون يمرحون في كلّ مكان. لم يحاسبهم أحد. حتى الثّورة لم تنتبه لهم ولم تحاسبهم فلقد عبروا محنتها بسلام وازداد بعضهم قوّة ونفوذا..."

لم تشف هذه الكلمات غليل الفريق الصّحفي الباحث عن السّبق والضّجّة. فنطق أحدهم:

"نحن لا نبحث عن تاريخ الحاج علي، نحن نريد تفاصيل القضيّة، نريد شهادات حقيقيّة..."

انتثر الرّجال واستطالت وجوههم وتطاير الشّرر من أعينهم وتغامزوا غمزات يفهمون وحدهم معانيها و تمتم بعضهم:

"صحافة أم "سرطية"[1]؟"

"نحن لا نعرف شيئا...ومن يعرف أكثر منكم؟"

"الآن بعد سنوات؟"

تحوّلت التّمتمات إلى مشادة كلاميّة وغادرت السّيّارة تطوي الأرض طيّا وتثير غبارا أكثر ممّا أثارته وهي تدخل القرية...

* * * *

(2)

"سي عفيف...سي عفيف"

تتشبّث الأصوات القادمة من كلّ صوب و تزداد حدّتها وترتفع حرارتها.

أصوات مراسلين ومدوّنين بمصادحهم وهواتفهم وحواسيبهم وهم يتدافعون ويتوسّلون إليه للظّفر بكلمة مباشرة. وهو يتقدم نحو قاعة الاجتماع ملفوفا بشبّان غلاظ يتقدّمهم عثمان الشرقي الذي يمسك بيده ويرفعها تحيّة للحاضرين، دافعا بين الحين والآخر بعضهم بشدّة وغلظة.

هكذا لاحت الصّورة التّلفزيونيّة التي افتتح بها التّقرير الإخباري بمناسبة "اللقاء الجماهيريّ الحاشد الذي انتظم بمدينة سيدي بوزيد "مثلما وصفته قارئة الأخبار على شاشة قناة تعدّ نفسها صوتا للشّعب وللثورة ثمّ جاء صوت وجه مخضرم تقدّم الصّفوف في كلّ العهود السّياسيّة بعد الاستقلال:

"الحمد لله، لا خوف على الثورة، نحن نفخر بهذا اللقاء وبهذا الصّيف الذي يعدّ من أقطاب الفكر في بلادنا و قد تعرّض للمنع

[1] السرطي: تسمية شعبية تطلق على أعوان الأمن المتزيين..

والهرسلة في العهد السّابق...كانت محاضرته قيّمة ومفيدة ومعبّرة عن تطلّعات الحاضرين و عن أحلام وطن..."

ويظهر عفيف واقفا أمام المراسل وقد سوّى ربطة عنقه:

"أفتخر بوجودي في مدينة سيدي بوزيد مهد الثّورة التي أعادت تشكيل أحلامنا. فشكرا لأهلها الكرام على ما قدّموه لهذه البلاد من تضحية ونضال...سنظلّ أوفياء لثورة السّابع عشر من نوفمبر". ثم استدرك وسط قهقهات متعالية وقال:

"عفوا...سنظل أوفياء لثورة الحرية والكرامة...ثورة السابع عشر من ديسمبر المجيدة..."

ضغطت على الزّرّ وطرت إلى قناة أخرى...هتف جليسي وكان عندي في زيارة خاطفة: "دعه دعه، أحبّ تحاليل سي عفيف ومواقفه، رجل صادق ومناضل، والله إنه جدير بحكم البلاد."

لم أر فائدة في مجادلته، عدت إلى القناة، ولكنّ التقرير الموجز قد انتهى...تألّم متحسّرا: "لو علمت بزيارته لذهبت إليه..."

أغرب ما في البلاد هذه الأعوام أنّ عقول النّاس شحنت بأفكار كثيرة مضلّلة وزائفة وحشر فيها عشرات الأبطال الوهميين ممّن يدفعهم الإعلام إلى الواجهة ليصنع منهم زعماء وشخصيّات سياسيّة مرموقة.

ما أغرب هؤلاء الذين كان كلّ زادهم السّياسي ما يرد من معلومات مقتضبة في نشرات إخبارية باهتة وبعض إشاعات. لم يقرؤوا يوما صحيفة حزبية أو نقابية أو كتابا ممنوعا. ولم يتسمّروا خلسة يوما أمام قناة المستقلّة عشية أحد لمتابعة برنامج المغرب الكبير ولم يبحثوا مساء السبت عن قناة الحوار التّونسي في نسختها الأصلية وموجتها الإيطاليّة ولم يقضوا الليالي في انتظار النشرة المغاربيّة على قناة الجزيرة ولم يمضوا السّاعات الطوال في متابعة إذاعات الـ"بي بي سي" و"ميدي1" ولكنهم انقلبوا فجأة

إلى محلّلين وشهود على العصر، لا يمكنك أن تقنعهم أو تعاندهم.

لم يكن جليسي هو الوحيد المنبهر بهذا الرجل الذي اكتسب مريدين وتابعين ووشاة...يبدو أنّه يشتمّ بدوره رائحة القصر...

يظهر عفيف هذه الأيّام بكثافة، ناشطا سياسيّا ومحلّلا إخباريّا ومتخصّصا في دراسات الرّبيع العربي مثلما يكتبون أمام إسمه أحيانا. لست أدري أين تخصّص ومتى؟ وأين تدرّس هذه التّخصّصات التي ينسب إليها هو وغيره؟

يدعى إلى النّدوات الكبرى و الموائد التلفزيونيّة الدّسمة التي تزدهر في ليالي الأزمات. يظهر على شاشات التلفاز. يجادل حول مستقبل الدولة ودولة الثّورة. يناقش نصّ الدستور ويتحدث عن هيبة الحقيقة والكرامة وهيبة مقاومة الفساد والأزمة المالية والنهب الضريبي وسياسة التوافق ويقول عنه بعض النّاس العاديين إنّ كلماته تنزل عليهم بردا وسلاما وإن تحاليله تعجبهم ويتمنّونه رئيسا.

قال صاحبي بعد أن حدّثته قليلا عن عفيف الذي أعرفه...

"لا تصدّق الفيسبوك فهو مجرّد وسيلة لتشويه النّاس... العفيف رجل وطني حرّ وإذا ترشّح سأصوّت له..."

ثم تنحنح وقال:

"يبدو أنك أصبحت من جماعة النهضة والمرزوقي، هم فقط يمكن أن يشوّهوا سي العفيف لأنّه شوكة في حلقهم، وقف ضدّهم وفضحهم..."

بعد أيام قليلة من زيارته إلى سيدي بوزيد وتصريحاته التي فرح بها كثيرون، انقلب عفيف وتغيّرت مواقفه.

شارك في برنامج تلفزيونيّ وصرّح أنّ تاريخ الرابع عشر من جانفي هو التاريخ الحقيقي للثورة التونسيّة واعتبر أنّ طلب أهالي سيدي بوزيد عبثيّ وغير مشروع ...

ثمّ عاد بعد أشهر ليقول:

"ما جرى لم يكن ثورة ولا انتفاضة. كان مؤامرة على الدّولة وعلى السّيادة الوطنيّة. تحقيق هيبة الدّولة واستعادة النسق العادي للحياة لا يكون إلا بالقطع مع الثّورجيين والعودة إلى الجادّة..."

لكنّ بعضهم مازال يترنّم في جلساته:

"سي العفيف...سي العفيف..."

* * * *

(3)

صباح غائم وبارد. بقايا المعلّقات الانتخابيّة تجرفها الرّياح وعناوين الصّحف تحتفل بالنّتائج التي أعلنت عنها هيئة الانتخابات وأنا أنتقل من مقهى إلى آخر، لا منهزما ولا منتصرا. أبحث بلا جدوى عن عبد الله المسرحي. يراودني أمل ضعيف في العثور عليه. فلقد هجر المدينة والسّياسة والثّقافة والمسرح وشطب ذاكرته بخطّ أحمر وفي قلبه غصص كثيرة بعد سنوات طويلة من الحلم والانتظار ثمّ توارى عنّي وتمرّد على السّارد، رافضا الانصياع له، مقاطعا الرّواية ومتناسيا حلم هدم الجدار الرّابع الذي همنا به زمنا طويلا...حين رسمت شخصيّته الورقيّة منذ زمن بعيد، لم أتخيّلها لتموت في نصّ واحد أو رواية واحدة أو في معركة واحدة بل أعددتها لنصوص ومعارك كثيرة وأبحت لها مرافقتي في التّرحال والهجرة من نصّ إلى آخر - لعلّي هنا أستعيد مقولات ميخائيل باختين وجوليا كريستيفا وأبرّر بها هجرة

الشّخصيّات من عمل إلى آخر وأبيح بها عودة شخصيّات روايتي القديمة لملاقاة القرّاء والجلساء - أردت أن يحمل عبد الله المسرحي لواء المثقّف الثّائر والمقموع. أذقته كثيرا من القمع السّياسي والثّقافي والعاطفي ودفعت به إلى هذا الشّارع الطّويل وربّما انحدته هزما وسخرت منه ولعلّه استطاع هو بدوره أن يفعل ذلك ويسخر منّي أيضا ولكنّنا ظللنا صديقين جمعت بيننا الأحلام والأوهام. كان يشاركني أحلاما كثيرة.

كان يحلم بأن أكتب له نصّا مسرحيّا وأصعد معه إلى الرّكح لكنّ الزّمان كشّر عن أنيابه. فهذه المدينة تطارد الكلمات وتوصد ركحها وتغرقه في الظّلام والأتربة. وضوضاء المسرحيّين وهم يضجّون ويرفعون أصواتهم عاليا قد خفتت فجأة...مازال الحرّاس الملائل يسدّون الأبواب، صحيح أنّ الحرّاس الأوائل هرموا واختفى أكثرهم ولكنّهم جاؤوا بآخرين أكثر شراسة ووقاحة...لم يخرج عبدالله من خلوته في الأسابيع الأخيرة ولم يستعد حماسه الفيّاض ولم تتحرّك إرادته المنكسرة ولم يركض مع الرّاكضين في الحملات الانتخابيّة ولم يقض اللّيالي مرابطا في مقرّ حزبيّ ما يخوض لعبة الانتخابات ويتدبّر أمر الإطاحة بهذا وجلب ذاك وهو الماهر في هذه المهمّة والعارف بخباياها من خلال ما شهده من مواعيد انتخابيّة في قريته زمن سطوة الشّعب الحزبيّة. وأظنّه لم يسجّل إسمه في السّجل الانتخابي ولم يغمس أصابعه في الحبر.

مازال مصرّا على نظريّة العباءة. كان يقول لي ونحن لم نتبيّن بعد الخيط الأبيض من الأسود في هذه الثّورة ومازلنا نرقص على إيقاعها ونحلم بتونس أخرى:

"هذه فرصة ثمينة تتيحها الأقدار للكثيرين لارتداء عباءة التّاريخ. هذه العباءة طريق إلى المجد والامتيازات والثّروات. إنّ التّاريخ يعيد نفسه. فبفضل دورهم التّاريخي الحقيقي أو المزيّف في

الثّورة على الاستعمار، تحوّل الكثيرون إلى طغاة ومتنفّذين ومنحت لهم الامتيازات الخياليّة وتمتّعوا بالأراضي والمال والسّلطة والنساء. وها قد بدأ بعض من استطاعوا الدّخول إلى باب التّاريخ من نافذة هذه الثّورة، مبكّرًا وعشوائيًا في جني بعض الامتيازات التي بدأت تثير الهمز واللّمز. هاهي أخبار غنائمهم تطغى على المجالس وتثير حنق النّاس وغضبهم."

لم يكن عبد الله مخطئا في تصوّراته ففي غفلة من الجميع وبينما كان كثيرون يصطفّون للحصول على امتيازات النّهدنة ويقدّمون أنفسهم للحاكم المخلوع ولزبانيته، رجال سلام وإصلاح وأعيان قوم لهم القدرة على التّأثير في النّاس ويقدّمهم الإعلام بصفتهم حكماء المدينة، نزلت عباءة التّاريخ ذات غروب. فهرول نحوها الجميع وتزاحموا حولها، قانعين بمجرّد لمسها أو استنشاق رائحتها، متبرّكين بها.

استطاع كثيرون لمس هذه العباءة والرّكوب بعد ذلك في عربة الثّورة التي لا حدود لها، ما أوسع هذه العربة التي تركها البوعزيزي أمام مقرّ ولاية سيدي بوزيد! قفز إليها كثيرون واحتشدوا داخلها. تأرجح بعضهم على جانبها وجرى بعضهم أمامها حتّى سبقها. انقلب الرّاقصون ليلة قبل الهروب ورقصوا من جديد مع الشّعب. الكلّ يلوّح بعباءة التّاريخ ويلوذ بها ويبحث لنفسه عن خيط منها يعلّقه تميمة في ثوبه أو في رقبته.

يضحك عبدالله ثمّ يضرب الطّاولة مقهقها بصوت عال:

"ولكنّ عباءة التّاريخ وصلت ممزّقة ومقتضّة كامرأة ثيّب...كم طافت هذه العباءة ولوّثت بدماء ضحايا الخناجر والسّيوف وبرصاص كاتم الصّوت وبصواريخ "التّوماهاوك" وحيال المشانق وقنابل "الكروموجان" والقنابل الكيمياويّة والأحزمة النّاسفة... كم طافت هذه العباءة والتفّ بها الشّهداء والأحرار ولفّت بها

الجماجم والجثث وتسلّل إليها المجرمون والخونة والمستبدّون وافتانوا منها...هي ثيّب ولا شكّ..."

هذه المرّة وصلت العباءة ممزّقة...ربّما لم يعد لها من قيمة في هذا العالم. ربّما سيكون للقوى والنّخب من الشّجاعة والذّكاء ما يعيد رتقها وتطهيرها..."ستنتظر يا عبد الله حتّى تخاط العباءة أو يعاد رتقها وتمرّ موجة الاصطفاف حولها لكي نتبيّن الخيط الأبيض من الأسود...."

يخرج سيجارة أخرى من علبته، يجذب منها بعض الأنفاس ثمّ يقول لي:

"لو تكتب لنا نصّا على هذه الشّاكلة وبهذا التّصوّر...أريد أن أرى هذه العباءة على الرّكح، أريد أن أفتكّ منهم هذه العباءة وأفضحهم، أريد عملا مسرحيّا كبيرا..."

ويكرّر بنشوة و حماس:

"عربة وعباءة وفانوس وجماهير محتشدة، هذا ما أريد، مسرحيّة كهذه تخرج بنا عن النّمط المسرحي السّائد، تطير بنا إلى المسرح الجماهيري وإلى مسرح بريخت، المسرح الذي يلتحم فيه الممثّل بالجمهور، أريد هدم الجدار الرّابع ..."

أجيبه:

"وأين ستهدم الجدار الرّابع؟ أيّ جدار؟ هل تتطلّب ثورتنا هدم جدار ما؟ لقد هدم الألمان جدار برلين و هدم العقيد معمّر القذافي جدران البوّابات الحدوديّة. فأيّ جدار سنقوم بهدمه؟

يقهقه عاليا:

"لو كان متاحا لنا، هناك جدران كثيرة تستحقّ أن نسقطها ونهدمها ولكنّنا ضعفاء، جدار الفصل العنصري الذي أقامه الصّهاينة في فلسطين منذ أعوام على سبيل المثال لكنّني في هذا المقام أقصد جدارا آخر، إنّه جدار مسرحيّ، هو الجدار الوهمي

الفاصل بين الممثّلين والجمهور وقد أطاح به بريخت، لعلّ الأمر يظهر في مسرحيّات سعدالله ونّوس بصفة خاصّة ففيها يلتحم الممثّلون بالجمهور..."

قاطعنا أحدهم متكلّما من طاولة قريبة:

"مسرح الشّارع طبعا...إنّه مزدهر في أوروبا..."

رمقه عبد الله بنظرة حادّة دون أن يعقّب عليه وهمس لي:

"فرنكفونيّون لا هدف لهم إلاّ استهداف الثّقافة العربيّة...أنا لا أعرف مسرح الشّارع الأوروبي...أنا أعرف سعد الله وأعرف الحكواتي"

أغوانا الحلم وبدأ يختمر في الأذهان وجلسنا مرارا نفكّر بجدّيّة في إنجاز هذا العمل المسرحي. كيف نفعلها؟

"عباءة وعربة وفانوس وجمهور..."

اتّفقنا على أن تكون فاتحة العرض بصوت يقرأ قصيدة الشّاعر الجزائري محمّد جربوعة فانوس الفقراء...

جوّدنا الفكرة لاحقا...يعمّ الظّلام، يظهر فانوس وسط الجماهير ويتكلّم الصّوت وهو يقرأ مقطعا من القصيدة:

إسمه كان "محمّدْ"

صامتٌ في الحزن جدّا

مثل دمعة

هادئٌ في النّار جدّا

مثل شمعة

وفقيرٌ مثل غصن في الشّتاء

لم يكنْ يملك شيئا غير وجهٍ

صامدٍ في صرصر الرّيح

كرايات قلاعٍ من بقايا كبرياء

حاول الشّرطيُّ أن يأخذ "وجه الرّيح

ماذا سوف يبقى..

غير قلبٍ دون فانوسٍ جميل

يكسر الظّلمة في حزن المساء؟

سيهاب فيه جياد النّار

واشتدت بعينيه احتمالات غياب

ربّما كان تعلّى[1](...)

ذابت الفكرة بيننا وتلاشت وأحبطت الآمال العريضة...كشّرت الأيام عن أنيابها وضاق المدى وتململ المبدعون وتمتموا... ذابت ظروف الفعل الثّقافي واختلط الحابل بالنابل...مرّت الأشهر وتوارى عبد الله. انسحب من المشهد. رفض أن يعود إلى رواية أخرى...هذا ليس زمن كلمة ولا زمن مسرح. إنّه زمن أعرج. دعوا لي ما يكفيني ويفيض عن قوّتي من وجع ومشاغل. تركناها لهوى. هكذا كان يصرخ وهو يذرع أنهج المدينة عجولا متّجها إلى إحدى محطّات النّقل الرّيفي مغادرا إلى قريته الرّيفيّة الصّامتة، تاركا شوارع المدينة. أطلّ على زوايا بعض المقاهي. أسأل بعض الجرائد: هل رأيتم عبد الله المسرحي؟ تهكّم بعضهم وهو يجيبني بالإيجاب:

"عبد الله أوجلان...في سجون تركيا...

عبد الله قاتل في العاصمة...

لا...ليس لدينا عبد الله المسرحي لدينا عبد الله التّراب...هههه

عبد الله...كلّنا عباد الله..."

[1] مقطع من قصيدة فانوس الفقراء للشاعر الجزائري محمد جربوعة

* * * *

(4)

قطعت ضحكات أنثويّة طويلة وعالية شرودي وزادتني قرفا. لم أجد صعوبة في تبيّن ملامحها. إنّها هي، نادية الشّرقي تضحك والدّنيا تضحك لها. تسير والفرح يغمرها. تكاد تحلّق كطائر بجناحين. هاتفها على أذنها وهي تثرثر مع أحدهم وتعبر النّهج الضّيّق المحاذي لمقرّ ديوان الحبوب، ليس بعيدا عن مجلس عمّها في المقهى ولا عن بيتها القديم في حيّ الخضراء. تتناثر كلمات تدلّ على أنّها تهاتف أحد السّياسيّين المتشبّثين بالانتصار الانتخابيّ، تتوقّف أمام المحلاّت الفخمة فتنهال عليها العيون المشتهرة بجمالها و تمدّ إليها الأيادي مصافحة. أصبح لها شأن في هذه المدينة...نادية في شوارع الثّورة...سجّل يا عبد الله المسرحي...انظر إلى هذه الدّنيا وهي تدور وتتقلّب...أما لمحت نادية تخطب يوما في جمع من الشّباب وتحرّضهم؟أما سمعت القهقهات قادمة من مقهى الثّورة؟ من هؤلاء الغرباء المتكدّسون في المقاهي بحواسيبهم المحمولة؟ من هؤلاء، ومن زرعهم؟

توقف نادية سيّارة أجرة.تتّجه مباشرة نحو المقهى. تنزل وهي تهاتف. تلج المقهى وتتّجه نحو طاولة يقبع حولها سعيد المراسل الصّحفي. فيقفز إليها مرحّبا ويفسح لها المجال للجلوس ثمّ يأذن لها بمشروبها المألوف.

سعيد مراسل صحفي كرّس مراسلاته لمدح السّيّد الوالي والأخ الكاتب العام. ظل لعقود يفتتح مقالاته بالجملة الشّهيرة "أشرف السّيّد..." ويختتمها بـ"عبّر الحاضرون عن امتنانهم لسيادة الرّئيس وإنجازاته". غاب أيّاما قليلة بعد الثّورة ثمّ عاد، يراسل الصّحف

والإذاعات والقنوات التّلفزيونيّة متطهّرا من الماضي ومتبرّئا منه، حاملا دياجة جديدة:

"احتجّ الأهالي..."

سعيد أيضا انقلب على نفسه في هذا الزّمن العجيب وأصبح يشيد بالثّورة والثّوار ولا يغيب عن محافلهم ومجالسهم ووقفاتهم الاحتجاجيّة وهم بدورهم أصبحوا يحرصون على حضوره ويفرحون لتعريجه على أسمائهم في مراسلاته. أخرجوه من جبّة إعلام العار واستثنوه من جملة من استثنوا من خدم النّظام السّابق. تقدّمه نادية بأنّه ملحقها الصّحفي ومدير أعمالها وهو الذي يكتب لها القاءاتها التي تلقيها في المؤتمرات والوقفات الاحتجاجيّة وغيرها وهو الذي يعدّ لها أجوبة عن الأسئلة التي تطرح عليها بما في ذلك الأسئلة التي يطرحها بنفسه في حواراته المزعومة...

هذا المقهى من المقاهي الجديدة في المدينة.لم يكن مألوفا أن نشاهد مقهى يعجّ بالإناث وطاولات مشتركة بين ذكور وإناث. كان الأمر غريبا ومثيرا للدّهشة. هنا تلتقي وجوه كثيرة بانتظام. تلفت الانتباه بشكلها الخارجي وبحواسيبها التي لا تفارقها ولا تهدأ. مدوّنون وناشطون شبّان وفدوا على الشّأن السّياسي حديثا يعبّر البعض على تمجيدهم واعتبارهم طليعة البلاد. فهم من أطاح بن علي. لكنّ البعض الآخر ينظر إليهم بشيء من الرّيبة. أثيرت شكوك وأسئلة تطرح بكثرة: من درّبهم؟ ومن وفّر لهم هذه الأجهزة وهم فقراء وعاطلون عن العمل؟

نادية الشّرقي أصبحت واحدة منهم. هي أيضا بحاسوبها وأجهزتها. ناشطة جمعيّاتيّة ومدوّنة معروفة.تقول إنّها منهمكة في دراسة الوضع التّنموي بالجهة وإنّها صوت المرأة المضطهدة و لها علاقة كبيرة بجمعيّات تونسيّة وأوروبيّة وتنظّم ندوات و ورشات تكوينيّة في هذا الشّأن. وهي تدعى من طرف السّلطة وتستشار

باعتبارها ترأس جمعيّة الشّهيدة وردة للمرأة الجديدة...قالت في ندوة صحفيّة تأسيسيّة إنّها أسّست هذه الجمعيّة وفاء لروح والدتها الشّهيدة وردة...وقف الحاضرون دقيقة صمت...اقرأ يا عبدالله... لا تنزعج...جمعيّة الشّهيدة وردة للمرأة...وردة أيضا ألحقت بقائمات الشّهداء والضّحايا وأصبحت تحمل صفة شهيد مثلها مثل بشير بن زديرة والدّغباجي ومصباح الجريوع ومحمّد بشلوله وفرحات حشاد والهادي شاكر وغيرهم من شهداء البلد...

لم نسمع سابقا بحادثة استشهاد وردة...النّاصر الشّرقي رفض ملاقاتها والصّفح عنها ونادية فشلت في إقناعه بذلك شأنها شأن كثيرين حاولوا تهدئة الأجواء وفتح صفحة جديدة في حياة عائلة شرّدتها الأيّام...لم تعد إلى الجهة منذ ذلك الصّباح الأخير من صباحات جانفي 2011 رصّت حقيبتها ومضت نحو محطة سيارات الأجرة...لا أحد يعرف أين ستذهب...لم يعد ممكنا أن تمكث هنا...حياتها في سيدي بوزيد صارت خطرا وما عليها إلاّ أن تبحث عن مكان آمن، ارتأته عند قريبة لها في ريف من أرياف القيروان. اهتزّت منذ علمت أنّ النّاصر الشّرقي غادر السّجن، لحظة فاصلة لم تنتظرها إطلاقا...

بعد أسابيع راج خبر موتها عند قريبتها، قيل انتحرت وقيل ماتت بعد مرض لم يدم غير أيّام و هاهي نادية تعلنها شهيدة وضحيّة لأحداث الثّورة. قاومت النّظام السّابق وتحمّلت القمع بسبب زوجها وأجبرت على الطّلاق وأصيبت برصاص الأمن أثناء تفريق إحدى الاحتجاجات وكانت تلك الإصابة قاتلة بعد مدّة...

يسارع مراسلون وصحفيّون إلى البحث عن رقم هاتف نادية، يتسابقون للوصول. إعداد ملفّ عن الشّهيدة أمّي وردة يصنع السّبق الصّحفي ويثير الاهتمام، سعيد ينسّق الأمر ويهيّئ المعلومات، يجالس نادية ويلقّنها ما يمكن أن تقول...فريق تلفزيوني سيسجّل

ملفين كاملتين والحكاية يجب أن تكون شيّقة ومتكاملة. لا بدّ من اختلاق الحكايات والمواقف. حكاية أمّي وردة قد تجلب الجوائز وحفلات التّكريم. هي فرصة للرّبح ولتحقيق مكاسب...

لفّن سعيد نادية كلاما كثيرا أبدعت في ترديده ونال البرنامج رواجا كبيرا. تابع النّاس باستغراب وتداولوا الحكاية بسخرية شديدة. تعوّدوا هذه السّنوات على هذه المسرحيّات محكمة الإخراج. نحن نشهد كتابة أخرى مزيّفة للتّاريخ يا عبد الله...لقد نجح بعضهم في ذلك .

* * * *

(5)

تشغلني وفيقة. أفكّر في أمرها بعمق. لست أدري ماذا فعلت بها الأيّام وماذا سيفعل بها السّارد في هذه المرحلة؟ هل ستستطيع الانطلاق من جديد مثل غيرها وتحلّق في فضاء البلد فإن شيئا لم يكن؟ هل لديها قدرة على أن تتغيّر وتتأقلم وتفرض نفسها في هذا الزّمن الجديد؟ أيّ مكان لها في هذه الرّواية؟ ماذا ستفعل بها الحياة؟

ماعدا نبيهة التي كانت سندا لها انتقلت إلى الرّفيق الأعلى. فما أنها نوبة قلبيّة أشهرا قليلة بعد الثّورة وشيّعت في جنازة باذخة لم يحضرها غير نفر قليل. اختفى المتمعّشون منها وأولئك الذين كانوا يركعون لها. أخفوا وجوههم وكأنّهم لم يكونوا خدما لها ويأتمرون بأوامرها...لم تعتكف بعد سقوط النّظام و ظلّت تظهر في الشّوارع تتشاجر مع هذا وذاك. تتصدّى لمن يصفها بأنّها من الأرامل ونسبه وكثيرا ما اشتبكت مع بعضهم بالأيادي واتيرت عليه بكلّ ما تملك من معجم بذيء ترجمه به...مشت خلفها

وفيقة باكية. فبرحيلها فقدت صدرا آواها وأنقذها لسنين طويلة فهي التي أنقذتها من براثن الجوع ودافعت عنها كثيرا...

سي عبد العزيز أيضا اختفى تماما. لا أثر له و لا حديث عنه منذ أخرج من مكتبه ذات ظهر شتويّ محاطا ببعض العسكريين ومنزعجا من صرخات شبّان غاضبين، لم يظهر ولم ترد عنه أخبار دقيقة وربّما صار إسمه مجهولا لدى هذه الحشود الجديدة من الوافدين على الشّأن السّياسي يخبطون خبط عشواء ويركضون هنا وهناك ويحرّكونهم كالدمى. قد يكون خارج البلاد أو في قرية لا يعرفها أحد. لم تتسرّب عنه أخبار ولم يرد في قائمات الفاسدين رغم ما كان يروج حول فساده. لم يرجع لممارسة السّياسة ولم يظهر في هذه الأحزاب الجديدة التي تحاول أن تنبت على أعقاب الحزب الدستوري والحركة الوطنية والحبيب بورقيبة. طلّق السّياسة التي جاءها منذ صباه، متأثّرا بوالده وبأعمامه الذين كانوا ينتسبون إلى قائمة المقاومين لمساهمتهم في الحركة الوطنيّة وكان لهم شأن كبير زمن حبيب بورقيبة...من يعرف عبد العزيز وصولاته أيام زمان يستغرب كيف سكتوا عنه اليوم واستثنوه من مختلف التتبّعات. قيل إنّ أحد الوجوه الفاعلة في مشهد الثورة وراء ذلك.

لا أدري أيّ مصير لوفيقة وأيّ دور يمكن أن تلعبه في الزوايا الآن بعدما انقشع زمانها و ذهبت الأيادي التي كانت تسندها؟

همس لي أحدهم:

"دعك من هذه الحيرة. وفيقة تجاوزت كل شيء واستطاعت أن تخرج إلى الواجهة من جديد. ألم تشاهدها على شاشة التلفاز؟

هي الآن ترقص في ساحة الثورة وتحتفل مع المحتفلين بذكرى حادثة البوعزيزي. أمّا والدها "سي عيّاد" فيلوذ بجدار قريب في بناية متداعية للسقوط. يشاكسه الصّبية العابرون ويرمونه بالحجارة ويطالبه أعوان الأمن من حين لآخر بإخلاء المكان حتى

يفسح المجال للمحتفلين وللمسؤولين والمصوّرين والمدوّنين القادمين...مسكين سي عيّاد...يذرع الشارع الطويل ملفوفا في معطف طويل، متوقّفا هنا وهناك، متفوّها ببعض أبيات الشّعر وبكثير من اللّعنات والكلمات البذيئة، يقتحم الاجتماعات والمظاهرات، رافعا أحيانا صورة وفيقة وملوّحا بها، هائما لساعات طويلة قاطنا الشارع...يطارد قطط آخر الليل. أمّا ابنته فتنعم بالبيت الذي وهبته لها مادام نبيهة قبل رحيلها وتجوب البلاد في الزيارات الفارهة، قيل إنّ أهله يحاولون إرجاعه إلى القرية ليعيش بينهم وألحّوا عليه ولكنّه يرفض...

* * * *

(6)

عكّاوة:

رابض بالشّمال ومقوّس الظهر.يسير متثاقلا ويدبّ رويدا رويدا. يقف الطريق نحو الجامع، مواظبا على الصّلوات الجماعيّة ومطيلا قيامه...

"ربي يغفر ويسامح"...يقولها لمن يشاكسه ممّن يعرف سيرته وينكر.

لم يصدّق البعض نواياه. قيل إنّه يتقرّب إلى حركة النهضة طمعا في نصيب من التعويضات فهو أيضا خرج عن صمته بعد الثورة وأصبح يردّد أنّه تعرّض لمظلمة مهنيّة وأطرد من عمله لأسباب سياسيّة...يقف أمام إحدى الإدارات منتظرا قدوم عبد الواحد القضاء شأن إداري...عبد الواحد أصبح "سي عبد الواحد" ...الذي يدير دفعة واحدة...عبد الواحد الخادم الشّخصي

لعلاّلة الزّيني أو غلامه مثلما يتندّر بذلك بعضهم. نصرته الثّورة ورفعته مثلما لم يرفعه الحزب. طيلة سنوات كان مجرّد مدّاح محترف ورجل من الطّابور الخامس يتولّى الصّراخ والهتاف وتوفير القوارير والحسناوات وجلب البسطاء من الأرياف لحضور الاجتماعات والاحتفالات الحزبيّة أو المشاركة في مسيرات التّأييد التي كانوا ينظّمونها. يدفع بطنه البارزة هنا وهناك. لا منصب له في الحقيقة ولا يعوّل عليه الحزب في غير الهتاف والتّصفيق. يتقدّم الاستقبالات الرّسميّة، يدفع النّاس إلى الوراء إذا ازدحموا أمام مسؤول ويصرخ في الصّفوف ويفتك رسائل التّظلّم التي يحاول البعض تسليمها إلى المسؤولين. هاهو يجني من الثّورة ما لم يجنه من لهاثه في خدمة علاّلة الزّيني والحزب... إنّه يحكم الآن ويجلس على مقعد إداريّ وثير باسم الثّورة. أمّا من هتفوا وصرخوا واحتجّوا زمنا طويلا، فأكثرهم انطوى على نفسه وغادر المشهد ملتاعا...

أيحدث هذا؟ وهل أنّ الزّمن أصبح مستهترا إلى هذه الدّرجة؟ منذ أيام وهو يتردد على مكتبه يخاطبه الحاجب بلهجة حادة:

"تفضّل...ماذا تريد؟ من أنت؟"

- السّيّد عبد الواحد...

يدخل ويخرج مكشّرا ليقول له ببرود:

"لم يأت "أو "منشغل و لا يمكن مقابلته..."

يتأفّف عكروت أمام الباب وانتظاره يطول فيلعن الزّمن مرات ومرات ويلعن الدنيا التي جعلته ينتظر خدمة يقدّمها له هذا الرجل...يمتصّ أنفاسا عميقة من سيجارته وهو يعود إلى البيت شارد الذهن بعدما تاه في التفكير في البلاد والعباد و هؤلاء المتسلّقين الذين يعرفهم مليا...

* * * *

(7)

وقفة احتجاجية لبعض من قالوا إنّهم أهله وذووه وأصحابه ... يطالبون باعتباره شهيدا وضمّه إلى قائمة جرحى الثّورة وشهدائها وتمتيعهم بمنح ومساعدات وإحداث مواطن شغل في القرية.

يقرأ أحدهم وهو يدلي بتصريح لمراسل قناة تلفزيونيّة:

"أهالي أياد متضرّرة في العهد السّابق ونطالب باعتباره شهيدا وإلاّ فسنعتصم...لن نصمت..."

يعقّب مصدر رسمي:

"لسنا ضدّ حقّ هؤلاء في الاحتجاج السّلمي فهو حقّ مضمون ولكنّنا نؤكّد أن لا صحّة لما تدعيه بعض الأطراف فهي افتراءات مغرضة وستشكّل لجنة خاصّة لمزيد التّحرّي..."

يستهويني الإسهام في هذه القضية. همست لبعض المحتجين قائلة: "حان الوقت لكشف أوراق همام السمرقندي التي ظلوا يخفونها عنا ويمنعوننا...حان الوقت يا همام لترى كلماتك وشهادتك عما جرى النور...لم تمهلك الثورة كي يحصل لك ذلك الشرف...لو تشجّعنا آنذاك ونشرناها لكُتب إسمك بحروف من ذهب ولانشغلتك من الضياع والنسيان والتغييب.

بعض من لم يكتبوا حرفا واحدا أو من كانت نصوصهم ترفض إرادتها وضعفها الفني وبعض من كانوا يقتاتون من موائد السلطة خرجوا يدّعون بطولتهم ويقتاتون من مجد لم يكن. ولكنّك لا تذكر إطلاقا. لقد حرمت من دخول التاريخ ومن الوقوف في صفوف الثوريين و"الثورجيين" والفوز بغنائم كثيرة...ها أنا أجمع أوراقك بحرقة كبيرة وأنوي طباعتها ولن ينتبه لها إلا قلّة من

القرّاء...ستصدر الرّواية وتنكشف الأوراق الخفيّة ويظلّ حميد يضحك بصوت عال مع جلسائه في دكاكين القرية وعكروت بطيل لحيته ويواظب على صلاة الجماعة وعفيف يبيع الأوهام ونادية ووفيقة تعيشان البهجة وتقودان سيّارتيهما الفخمتين من شارع إلى شارع ومن مدينة إلى مدينة وهما تترنّمان بأغنية الشّاب خالد التي اكتسبت شعبيّة ذات مسلسل رمضانيّ تونسي بعد أن غنّتها إحدى الممثّلات و هي تقود سيّارتها:

on va s'aimer
On va danser
C'est la vie lalalalala

قيل وقال

زَمَن
الهُدْهُدُ المخْصيُّ كاتِبُهُ
وحاجِبُهُ ذُبابَهْ
زمنٌ تكون به وحيداً
كالفراشة في سحابَهْ
يا من يعلّمني القراءة والكتابة
يا من يُسلّمَني بأشرعتي وأجنحتي
لسكين الرّقابة
تحيا الكتابة
تحيا الرّقابة

معين بسيسو / قصيدة سفر سفر

هم يحبّون عنّي ولكنّهم لن يستطيعوا الظّفر بي. أنا كابوس يحلّق فوق كلّ دروبهم ويتابعهم من مكان إلي آخر ويتسلّل مزعجا إلى منامهم وطيف يتبختر في ذهن كاتب منكسر ولا وجود لي في الحقيقة. إنهم يخوضون حربا مع شبح...عكروت يلوح كثور هائج في المقهى، يتطاير منه الشّرر وتنتفخ أوداجه. يتحلّق حوله عدد من أصحابه. يمتصّ النفس الأخير ثم يدعك عقب السيجارة على الطاولة ويلقي به وهو يزعق:

"من هذا الكلب؟ ماذا يريد مني؟ لن يمرّ. لست عكروت الأحمر إذا لم أعرفه ولم أنل منه...ليس لي ما أخسره. خسرت مهنتي وعيالي وزوجتي الأولى، ومازلت مستعداً لأخسر ما تبقّى من

عمري في السّجن. فلأكن قاتلا يشار إليه بالبنان، ولا أكون مسخرة لهذا الصّبيّ المشاغب..."

لاذ الجلساء بالصّمت. تعلّموا أنّ الكلام في مثل هذه الظروف خطر. لا أحد منهم يريد حشر نفسه في حكاية غامضة.

استمرّ عكروت في هذيانه وهو يقلّب الأوراق: "يريد سجني واعتقالي. هههه...لا تحلمْ بذلك اليوم يا همّام يا كلب يا ابن كلب...أقتلك وأستظهر بشهادة طبّية...ينجدني أحدهم بشهادة طبية تثبت مرضي العقلي ولن أقضي شهرا واحدا..."

أضاف والشّرر يتطاير من عينيه والدم يغلي في عروقه: "يقول عني "متملّق" ويتمنّى إيقافي فجرا...الويل لك ولمروّجي أوراقك القذرة...هم عجزوا عن معرفتك، ولكنّي سأعرفك، وسأمسك بك من حزام سروالك وأدفعك أمامي..."

ما أغباك يا عكروت...تقبض عليّ؟ أنت تتوهم...كنت جالسا على مقربة منك وأضحك من هذيانك...أنا هنا تحت هذه الأشجار تحت حماية جدي "سيدي السّمرقندي" الذي أوصاني أن لا أخاف منك ومن أمثالك وأن أنتظر لحظة الفرج التي ستأتي حتما...

* * * *

حديث الأوراق الطائشة

حديث الأوراق الطّائشة يسري في المدينة، رغم التكتّم والحذر. تناقلته الأفواه وردّدته معنعنة "عن علاّن عن فلتان عن فلان...." حتّى ذاع وضاع المصدر وضاعت رائحة الحكاية... مثل هذه الأخبار كانت يومها، تنتشر وتسري في كل مكان سريان النار في الهشيم رغم الرّقابة والحيطة الشّديدة والألسن الحذرة التي تخشى الجدران والآذان وسواء كانت صحيحة أو مزيفة فهي

مثل "إشاعة مغرضة" و"صيدا في المياه العكرة" وتشويشا على الانجازات التّونسية الكبيرة" في نظر الجهاز الرسمي والمقرّبين منه.

لم نكن آنذاك قد دخلنا عصر "الفيسبوك". هذا الذي ننسب إليه الآن كلّ إشاعاتنا وأكاذيبنا ووثائقنا الخطيرة. وكان الكثيرون يسندون أخبارهم إلى قناة الجزيرة التي أصبحت شبيهة في الذهنية العربية بالراوي المتخيل في السّرد العربي.

راج خبر الأوراق...زعم البعض أنّها وصلته من مصادر خاصة وزعم البعض الآخر وهو يقسم أنّه قرأها في نسختها الأصلية. ومازال آخرون يتمنّون العثور عليها ليشبعوا بقراءتها غير أنّ الكثير من الناس يتجنّبون الخوض في شأنها ويرفضون مجرّد السؤال عنها ويشيحون عن السّائل ويتعوّذون في سرّهم ويلعنون الشّيطان "أوراق مجهولة لشخص مجهول. قد يكون كتب فيها بعض الهذيان أو التمائم..."

ضرب جليسي الذي قبع جذوي مصادفة هذا الصباح دون سابق معرفة بيننا، كفّا بكفّ:

"يا ناري ...يا ناري...مجرّد أوراق طائشة، تخلط الأوراق في المدينة وتحوّلها إلى معسكر، سيّارات مختلفة الأنواع وأمنيّون بالزي المدني يذرعون الشوارع..."

ثم همس في أذني:

"السيّد الرّئيس يشرف على الحكاية بنفسه ويتابع مجريات الأمور بدقّة وانزعاج..."

صمت قليلا ثم سألني بإلحاح: "هل قرأتها؟"

نفيت ذلك...زعمت أنّها ليست جديرة بالقراءة فهي مجرد وساوس، لعلّ صاحبها مجرّد مختلّ...

أحسّت أنّه منهم...كلمة السّيد الرّئيس أوقعت به دون أن يدري...لن يفلت من وجدوا عنده نسخة من تتبّعاتهم. هم يبحثون عن كبش فداء..

* * * *

لست أدري إن كان همام السّمرقندي قد أضاع أوراقه على إحدى طاولات المقهى أو تعمّد تركها أو اختلست منه. ولست أدري إن ترك نسخة واحدة أو مجموعة نسخ. ولا أعرف من سرّب النصّ من جديد وأخرجه إلى النّاس بعد جمعه وتقديمه إلى الأمن...هل ثمّة من حصل على نسخته قبل العثور على النص وأعاد طبعه وتوزيعه؟ هل عمد همام نفسه إلى إعادة توزيع أوراقه على الناس؟ هل استهوته اللعبة فكرّرها مراوا وألقى بنصوص جديدة؟

قطع أحدهم تفكيري:

"ربّما سرّبها أحد أعوان الأمن. ولا غرابة أن تكون الحكاية مفتعلة من طرف السلطة اختبارا للناس. لقد عوّدونا على إشاعات تسبق القرارات. لا بد أنهم يبرمجون لإحداث زاوية جديدة تحمل بصماتهم. هم يثيرون البلبلة، ويبثّون الحيرة في النّاس...أي جدّ سمرقندي يروّجون له عبر هذه الأوراق؟"

وأضاف وهو يرتعد غيضا:

"لن نفرّط في جدّنا سيدي بوزيد وزاويته. سنحطّم كلّ زاوية يشيّدونها. سنظهر لهم غلطتنا. هذه أرض جدّنا سيدي بوزيد. ها سقطت فرسه..."

همستُ في أذنيه حتى لا يسمعنا أحد...حدّثته عما يكون قصد بالزاوية الجديدة وبجدّه. فابتسم وتهلّلت أساريره:

"وهل يمكن أن يحصل هذا؟إني أتمنّاه...فلتسقط كل الزّوايا التي يتعبّدون فيها على رؤوسهم وليمضوا إلى الجحيم...يوم تسقط زواياهم سأجري بلا حدود...سأركض شرقا وغربا...إنها ساعة الخير التي أنتظرها...لقد جثموا على ظهورنا وقلوبنا كثيرا."

* * * *

في حقيقة الأمر، لا يمكن التعويل على مثل هذه الأوراق الطائرة ولا التّهويل من شأنها. فكثيرا ما عثر الناس على مثل هذه الأوراق المجنونة التي تروج في الشارع أو تصلهم عبر البريد الإلكتروني أو يجدونها تحت أبواب منازلهم. مناشير سياسية تحتجّ على الغلاء وعلى الحكم العسكريّ وتستعرض انتهاكات حقوق الإنسان وحالات التّعذيب التي يتمّ اقترافها ورسائل عاطفيّة لا تبذل توقيعا وخطابات دينيّة تبشيريّة ومعلّقات إشهارية لمنتوجات تجارية. وأحيانا تحمل تهديدات غريبة وتعاويذ وتمتمات على قارئها توزيعها وإلا سيحصل له شرّ...

كان يمكن أن تمرّ هذه الأوراق بلا هلع ولكنّه الخوف من المجهول، ومن الكلمة في بلاد تكمّم الأفواه ويسدّ وشائها كل الوافد ويحترسون خشية كلمة واحدة تحرق معبدهم...

ظلّت الأوراق تدور وتدور وظلّت الألسن تلوك حكايتها:

قيل هي منشور سياسيّ ممنوع يتوعّد النظام ويهدّد رجال العهد الحاكم بمصير شبيه بمصير حكّام بغداد بعد الغزو الأمريكي. وقيل أوراق عجيبة يدّعي صاحبها همام السمرقندي الذي لا يعرفه أحد، أنه وليّ صالح يريد كشف أسرار أخفاها الكبار ويهدّد من لا يتبعه ولا يروّج أوراقه بالويل. وضحك البعض الآخر قائلا: "أوراق رجل معتوه".

صباحات عديدة لم تهدأ خلالها الزوبعة...سيّارات أمن وأمنيّون سرّيون في الزّي المدني.

بغلظة يستوقفك أحدهم:

- بطاقة التعريف

يأخذ بطاقة تعريفك...يبتعد خطوات...يملي إسمك ورقمك ...الويل إذا لم يردّ الطرف المقابل معقبا على رقم بطاقته:

«rS...rS....rS»

الأمنيّون متعبون وتسرّب إليهم اليأس. لا وجود لهمام السّمرقندي في سجلّاتهم. لم يحمل إليهم المخبرون شيئا. هو الآن كإبرة في كومة تبن...

قال الضّابط لزميله وهو يتأفّف:

"من أين سنأتي به؟ أف من هذا العمل...يريدون القبض عليه فورا، تعليمات فوقيّة صارمة بالقبض عليه...الرئيس يتابع والوزير يتابع والوالي يتابع..."

ردّ زميله بتشنّج:

"ليأتوا بأنفسهم ويقبضوا عليه وعلينا. رابطنا في المقاهي والحانات والشوارع ليلا نهارا. لم نعثر على شيء ولم نسمع غير هذيان. يطالبوننا بأن نقبض على أنصاره من المعجبين بأوراقه فلعلّهم يعرفونه. يصنعون لنا زعيما من ورق...أي مهنة هذه؟ مرّ هذا الخبز...هم في مكاتبهم الفخمة ينعمون بالحياة والثّروات ونحن نذرع الشوارع والأنهج. نتسمّر في المقاهي والحانات وأمام المعاهد والجامعات، وفي المحطّات، صباحا ومساء في البرد والقيلولات. تلاحقنا اللّعنات والنّظرات الحاقدة وحجارة المشاغبين ويتعامل معنا النّاس بالقفازات والأقنعة..."

نعلق عون سري:

- لا وجود لزاوية...الرّجل يطوف قريبا منا في أحواز مقهى [illegible]...زاويته هنا...انظروا إلى فوق...

ردّ زميله:

- نقصد مقرّ الحزب الديمقراطي...

- نعم

- راودتني الفكرة و راقت لي...

- طيّب، فلنتقدّم...لنكتب أستفيد أنّ المدعو همام السمرقندي ليس إلا أحد المنتمين إلى الحزب الديموقراطي ونحن بصدد تتبعه والتّحرّي في الموضوع...

- نعم...ولنعتقل الصاعدين إلى مقر فرع هذا الحزب وتابعهم...

* * * *

أونس نيوز: السلطات تعتقل مشتبها في تعاطفه مع همام السمرقندي

قالت مصادر حقوقية مطّلعة في تونس إنّ السلطات الأمنية اعتقلت في العاشرة من صباح اليوم الأستاذ فاروق الشويحي بينما كان خارجا من عمله بتهمة الاشتباه في علاقته بالمعارض المجهول همام السمرقندي وعبّرت المصادر عن استيائها الشديد من العملية وإدانتها لتعرض الأستاذ إلى التعذيب وطالبت بإطلاق سراحه فورا ومن جهته عبر النّاشط السياسي ورئيس جامعة سيدي بوزيد للحزب الديمقراطي عن استنكاره للعملية وقال إنّ حزبه يتابع الموضوع بقلق شديد منددا بتواصل انغلاق المناخ السياسي في تونس واستهداف الحريات .

* * * *

مصدر رسمي ينفي ويفضح الخونة والمرتزقة

تونس (وات)

علمت وكالة تونس إفريقيا للأنباء أن لا صحّة للأخبار التي يتم ترويجها حول اعتقال أستاذ بمدينة سيدي بوزيد بتهمة الانتماء إلى مجموعة سياسية وقالت المصادر إنّ الإيقاف تمّ بناء على إذن قضائي على إثر قضية شخصية تقدم بها أحد أقارب المدعوّ وأوضح المصدر أنّ الموقوف لم يتعرّض إلى أيّ شكل من أشكال التعذيب وتمّ إطلاق سراحه بعد التّحرّي معه. وعبّر المصدر عن استنكاره للهجمات الإعلامية التي تمارسها أطراف عرفت بولائها للخارج وعملها وفق أجندات مشبوهة واستقوائها بالأجنبي تشويها للديموقراطية التونسية الناجحة ولمكتسبات التغيير المبارك وللنموذج التونسي الذي يحتذى به في العالم مؤكدا أنّ تونس التّغيير ماضية في مسارها ولا تحتاج دروسا من أحد....

(قرئ هذا البلاغ في مختلف النشرات الإخبارية للإذاعة الوطنية لمدة يومين متتالين ونشر في مختلف الصحف اليومية وسكتت عنه القناة التلفزيونية الرسمية...)

* * * *

صفحات من مخطوط همام السمرقندي

"بسم الله الرحمان الرحيم"

أنا همام السّمرقندي حفيد الشيخ الجليل الذي ظلمتموه وهمّشتم أهله ودفعتم بهم نحو البوادي وتركتم لأنفسكم الحاضرة تعيثون فيها...ها أنا بفضل يده وروحه أرفرف بينكم...أترشف قهوتي على مهل وأدخّن سجائري بكلّ شراهة وأردّ على تحيّاتكم

بابتسامة خادعة وأعمد إلى مصافحة بعضكم وأتفرّج عليكم وأسمع لغوكم وأسخر من مخيريكم...

ها أنا في المقهى وساحاته. أقضي ساعات طويلة مع أصدقائي، نثرثر ونضحك حينا ونتباكى على ظروفنا أحيانا أخرى...نلعب الورق و"الدومينو" ونتابع العابرين والعابرات ونتداول قراءة صحف خاوية ونجدّد مواعيدنا كل يوم...تبلغني أخباركم ومطاردتكم وحيرتكم وحلم بعضهم بالقبض عليّ... حتى جلساني اليوميّون يفكّرون هكذا بالصوت العالي وبلا خجل ويحاولون أن أؤيدهم في أفكارهم وأثرثر معهم في أحلامهم وقد أتولى وعبة القبض على همام وتسليمه إلى السلطة...معكم أيضا، لم أكشف السر لأحد. ظللت متكتّما ومتشبثا باللّعبة...لم أكن أرغب في كل هذا ولكنّها مصادفة...غاضبا كتبت الأوراق الأولى عن الذئاب في تلك اللحظة الموجعة...اللحظة التي كان يجب أن يفاد فيها أولئك من أحزمة سراويلهم قجرا إلى السجن وأفعالهم لم يفعلوا...غاضبا كنت...سامني أن لا ينتصر أحد لدبّ الصحراء وأن يدخل طيّ النّسيان...

* * * *

كانت البداية ذات ليلة شتويّة باردة...

غادرت خطاي ونأى البيت...تهت يمينا ويسارا ثم استقيت في الحديقة العمومية المقابلة لمقهى سمرقند...نمت مع المعتوهين والمتشردين ممن لا سكن لهم ومع البدو التّائهين الذين لذّ لهم البقاء في الخانة حتى فاتتهم وسائل النقل ولم يجدوا سبيلا للعودة إلى قراهم...ثرثرت كثيرا مع بعضهم حتى غلبني النوم... بدا لي كهل طويل شعر الرّأس، حليق الذقن، بارز البطن...هبّ يتلوى مغرقا ومحتضنا بالبكاء...لم يجد منّي ترحيبا ولم يبدر مني

ما يدلّ على أنّي عرفته...توقف قليلا يرمقني بنظرة حادة ثم قال لي بثقة في النفس:

كيف نسيت الماء والملح؟ ألم تكن صديقي؟ ألم تجمعنا الليالي الطويلة؟

تعللت بالنسيان...المخيلة بيضاء...كلّ الصّور تبدّدت...ردّد والدم يغلي في عروقه:

ستتذكرني يوما...أرجوك لا تنسني لاحقا...أخبر الناس أنّ قتلتي بينهم وأنّ بعض من يحكمون هذه الجهة يعرفون قتلتي ولكنّهم يتكتّمون...ثم اختفى فجأة...

وأفقت مذعورا...طار النّوم من عيني...لا أنا في الحديقة ولا أنا أمام سمرقند...كان مجرد حلم ثم صار كابوسا أحمله معي من مكان إلى آخر...زارني في الليالي الموالية وحكى لي ما خفي ومرّ في الكتمان...وها أنا أخيرا أكتب وأخطّ الحكاية.

* * * *

في المقهى الذي جمعني به لأول مرّة منذ سنوات بعيدة وعلى نفس الطاولة القديمة التي كنّا نتلمّس فيها الحياة ونحن نحبو في دنيا الليل انطلقت في كتابة أوراقي وسرد الحكاية التي طمست ملامحها...

على تلك الطاولة الصّدئة التي سهرنا حولها مع أستاذنا سي عيّاد وأعطانا المناشير، كتبت تلك الأوراق على أمل أن أنشرها في صحيفة معارضة مثل "الموقف" أو "الطريق الجديد" أو"مواطنون" كشفا للحقيقة ولكنّي أضعتها. لا أدري إن نسيتها أو اختلسها أحد جلسائي وأخذها إليهم. يحدث أن أجلس مع المندسين والانتهازيين، لقد انتشروا في مجالسنا يتلصّصون، ويرافقوننا إلى كل مكان، يمرحون معنا ويلعبون ويشربون ولكنّهم

يتنفّسون الأنفاس ويبحثون عن الأسرار، بعد اكتشافهم لأوراقي وأولى سمعت وعيدهم وتهديدهم فقرّرت أن أمارس لعبة ليّ الذراع وأن أندفع في لعبتي وأن أخيفهم بالغول وبسيدي السمرقندي...يحدث أن أحلم بأني استجمعت أوراقي وقدّمتها إلى ناشر متحمّس فيرنّ في ذهني الخبر التّالي:

* * * *

السلطات التونسية تمنع رواية "أوراق السمرقندي"

القدس العربي- وكالات: منعت السلطات التونسية طباعة رواية "أوراق السمرقندي" وتوزيعها لصاحبها همام السمرقندي واعتبرتها متعلّقة بالنظام العام وتتضمن ثلبا لشخصيات فاعلة ومن جهتها أدانت رابطة الكتّاب الأحرار غير المعترف بها قانونيا الواقعة داعية إلى الإفراج عن الكثير من الكتب التونسية المحتجزة من قبل الداخلية التونسية وإزالة القيود أمام حرية التعبير في تونس. وعبرت منظمات حقوقية عالمية عن مساندتها للكاتب التونسي وانكارها لما يلقاه من تضييقات وحذّرت من المساس به وبحقوقه...

وفي هذا البيان بصوت رنان في نشرة السي بي سي أيضا ويردّ كتاب تونسيون وعرب كعادتهم بتحبير مقالات في الصحف اليومية تمجيدا لحرّيّة التعبير في تونس ولمناخ الحريات المتوفّر وبما قدمته تونس لكتّابها. كان هؤلاء يحرسون النظام بأقلامهم الحديدية، يهللون لنواياه ويؤكدون نجاحها ويمدحون الخير العميم الذي عمّ البلاد والعباد ويتصدّون لكلّ حرف يشكّك أو ينتقد ويجلدونه جلدا مبرحا في صحف يومية وأسبوعية تونسيّة وعربية وفي حصص إذاعية وتلفزيونيّة تقدّم باعتبارها أطباقا من التّحليل السياسي النزيه والموضوعي...

قرأتها يا رياض...

سمع علاّلة أصواتا تقترب...

دخلت المسيرة المقرّ، اتّجهوا جميعا إلى مكتبه

علاّلة ديقاج ...ديقاج" تسلّل من الباب الخلفي

تفطّنوا له وهو يحاول الخروج. حاصروه، افتكّوا

له السّيّارة، اقتربت منه نادية وصرخت في وجهه

"يا مجرم"...همّ عثمان بضربه، منعه النّاصر،

حلّت سيّارة عسكريّة على جناح السّرعة، تقدّم

إليه جنديّان وأخذاه وسط الهتافات:

يحيا الجيش ...يحيا الجيش ...

من أوراق رواية علاّلة الهدى

الورقة الأخيرة

لم يكن موعدا مرتّبا ولا أعرف إن كان مجيئه مصادفة أم ثمّة من أعلمه بمكاننا...كنّا كعادتنا صباح كلّ سبت في المقهى، نقع على ضفاف المدينة وبعيدا عن هرجها ومرجها وباعتها. فلا نفترق إلاّ وقد بحّ صوت باعة الملابس المستعملة وشرعوا في طيّ بضاعتهم والتأهّب لجمعها وإخلاء السّوق. نثرثر ونتجادل، نتّفق ونختلف في آن واحد، نسرد ذكريات قريبة وبعيدة...فوجئنا به يلج المقهى ويتّجه نحونا. هبّ له صاحبي مقبّلا ومرحّبا ترحيبا أزعجني، عانقه عناقا طويلا ثمّ همّ بمصافحتي وتقبيلي كذلك وهو يقول ضاحكا:

"...أم أنّك لا تصافح الأزلام؟"

بدت له يدا باردة واضطررت للابتسام في وجهه من باب الدبلوماسيّة...

أعاد مكانه قبالتي، ألقى بهاتفه على الطّاولة ثمّ ابتسم وقال:

"...قرأتها !"

- ماذا؟

- الرّواية...

ثمّ ارتفعت قهقهاته...قاطعني السّارد وهو يكاد يخرج له من مكانه الخفي:

"لماذا يضحك؟ هل يضحك من نفسه أم منّا و من الثّورة؟ هل تراه ينتصر الآن ويعيش لذّة انتصاره فهاهو يضحك أخيرا، مثلما علّمنا المثل الشّعبي؟"

ثمّ لكزني صارخا:

"اتركني، ابحث عن سارد آخر يقبل الهزيمة ثمّ مجالسة هؤلاء، سأرحل"

هدأته ولكنّي كنت أتساءل بيني وبين نفسي:

لماذا لم يبد احتجاجا؟ هل أصابته عدوى الثّورة؟ هل تعلّم أن يكون ديموقراطيّا؟أم اقتنع أنّ ضجيج الكتّاب لا شأن له؟ هو الذي كان يزمجر ويهدّد ويتوعّد كلّما بلغه خبر نشر مراسلة جهويّة في الصّحف تتطرّق إلى النّقائص التّنمويّة والصّعوبات الاجتماعيّة في الجهة خلال تلك السّنوات الطّويلة!

هو الذي كان يحتجّ بشدّة ويقود تلك الحروب التي كانوا يشنّونها بضراوة، يشدّ أزر المسؤولين الذين تفضحهم المراسلات، يطالبهم برفع القضايا العدليّة ويكلّف المراسلين الجهويّين الموالين له بإعداد الرّدود والتّكذيبات ويحيل نسخة من المقال مرفقة بتوصية سرّية جدّا إلى فرقة الإرشادات، هو الذي كان يرفع التّقارير ويتّصل برؤساء التّحرير ومساعديهم متوعّدا ومهدّدا داعيا

إيّاهم إلى الكفّ عن التّعامل مع هذا الشّخص وقد أفلحت مساعيّ كثيرا...هو أحد الذين كادوا لي وحاولوا تلجيم قلمي ولكنّه الآن يبتسم في وجهي ابتسامة عريضة وعميقة ويتحدّث بأريحيّة ويكرّر:

"....والله أعجبتني الرّواية !

أنا أحتفظ بنسخة منها وقرأتها مرارا. جلبوها لي زمن صدورها وطالبوني بتتبّعك ومقاضاتك. عرضوا عليّ أن يتدبّروا لك مكيدة. لكنّي رفضت، أنا رجل ديمقراطي وبورقيبي النّهج، أحبّ الفكر والثّقافة، وأحبّ الكتاب والكتّاب، ولا مشكل لديّ أن نكتب عنّي. ربّما ساعدتني في كتابة يوميّات من سيرتي المشتّتة"...

بدا صاحبي مذهولا:

"عليك بالله يا سي علاّلة من هؤلاء؟من جاءك بها؟"

امتنع عن ذكر الأسماء واكتفى بالقول:

"ههه... أصحابه..."

ردّ صاحبي متثنّجا:

"...ألم أقل لك منذ زمن؟"

أجبت:

"أعرفهم جيّدا ولا أستغرب منهم شيئا...أولئك يفعلون ما لا يخطر على بال أحد وقد تفطّنت مرارا لمؤامراتهم..."

ردّ علاّلة وقد لاحت منه ابتسامة ماكرة:

"إنّه يعرفهم جيّدا..."

ثمّ واصل حديثه مندفعا:

"أنا لا أنكر شيئا. صفّقت وصرخت وهتفت باسم النّظام وكسبت أشياء كثيرة وأكلت لحوم الخرفان ونكحت الحسناوات المطيعات اللّواتي كنّ يعرضن أنفسهنّ على رجال السّلطة وفعلت ما فعلت. كذلك سارت الأمور التي قادتني إليها الحياة. الصّدفة

وضعتني في تلك الأماكن والمناصب. لا أدري كيف دخلت هذا الميدان وكيف خرجت. هي الحياة. لم أخطّط لشيء. ولم أتخلّ يوما عن إحساسي بانتمائي إلى "أولاد الحفيانة" أو عن حبّ تونس...الدّخول والخروج لحظتان مشهودتان وما بينهما سنوات طويلة مرّت وكأنّها لحظات، فيها المرّ والحلو وفيها الخطأ والصّواب...لم تكن سنواتي كلّها فسادا مثلما تروّجون...لقد كنّا يا رياض! إيييييه لقد كنّا..."

حاول أن يكبح جماح تنهيدته وهو يقول جمله الأخيرة حاملا قصّة عميقة...ثم كرّرها:

"كنّا...وكنّا...لم نكن قطيعا من الفاسدين...كان فينا الصّالح والطّالح كنّا نؤيّد وكنّا نحتجّ...كنّا حوكي وحرايري...كنّا حرّاس النّظام الأشدّاء ومن يقترب من تونس ومن نظامها تنال منه. تلك هي القيود التي ترتّبنا عليها..."

ضرب الطّاولة ضربة ذكّرتني بتلك الضّربات التي ينقرها بورقيبة على الطّاولة في خطبه وهو يحدّق في وجهي:

نحن نشأنا في عائلات وطنيّة فقيرة لا مكسب لها إلاّ الوطن لا سند لها إلاّ الدّولة والحزب...لم تكن لنا سفارات تدعمنا وشركات كبيرة تموّلنا من الخارج...كان لنا وطن وكانت لنا دولة وحزب نعلّق عليه آمالنا في إغاثتنا بالمساعدات والمنح .هذه هي الحقيقة التي نشأنا عليها في أريافنا وديارنا الفقيرة ...لم يكن عالمنا أوسع من هذا...كان عالما محدودا وضيّقا ومن يقول عكس هذا فهو كاذب. هذا ما ينكره البعض من باب المزايدة...

كنّا نحمي النّظام والوطن في آن واحد و كنّا نعيش مشاغل الحزب ونهتمّ بأفراحه وأتراحه...لا تصدّق ما يقولون...لم نكن غزاة"

أومأ صاحبي موافقا :

"تكلّم يا علّالة...للحقيقة وجوه أخرى ولكلّ منظوره الخاص للأشياء...السّياسة عند ساسة اليوم، فنّ تجميل الذّات وتشويه الآخر..."

وأضاف:

"نعم...لم يكونوا جميعا نسخة واحدة...لا بدّ أن ننصفهم..."

ردّ علاّلة مبتهجا:

"صاحبك يساري شريف و ثوريّ بحقّ ...أحبّ هذا النّوع من المعارضين الهادئين ممّن لم ينشغلوا بتحصيل المناصب والغنائم واكتفوا بالتّفكير والبحث عن قراءات سليمة للوضع، معتقدين أنّ لحظة سعادتهم هي ولادة المجتمع الدّيموقراطي الحقيقي، الثّورة يجب أن تقضي على الظّلم وتكفّ عن وضع الجميع في سلّة واحدة...إنّ المناصب لا تدوم لأحد...سيمضي هؤلاء مثلما مضينا ومثلما مضى من قبلنا ومن قبل من قبلنا...ستمحى لغتهم وتمزّق صورهم وصحائفهم يوما...تلك هي سنّة الحياة وذلك هو منطق التّاريخ...أين البايات؟أين الزّعيم بورقيبة؟ أين محمّد مزالي؟ أين زين العابدين؟ كلّ هؤلاء صالوا وجالوا وضربوا صدورهم في البلاد وأمام الشّعب ثمّ تركوها في نهاية المطاف. أنهى بعضهم حياته منفيّا محروما من أهله بعد عقود من المجد ...لن تدوم لهؤلاء أيضا يا ولدي..."

واصل حديثه:

"...ولكنّي لم أغضب ممّا ذكرت في روايتك بل ضحكت كثيرا. أظنّك اقتربت من الحقيقة ..."

ثمّ أردف:

"ها قد جاءكم آخرون وأتمنّى أن لا تصمت عن حقائق هذه الأيّام فهناك أشياء كثيرة يجب أن تقال عن هذا الزّمن...لا يغضبني أن تتحدّث عنّي...فأنا من المباحين والمستباحين هذه

الأيام...مباح لك ولغيرك سبّنا وشتمنا في هذه السّنوات...لعنّا في هزلنا وجدّنا، اللّصوص والموسات وغيرهم...حتّى أولئك الذين كانوا يتمعشّون منّا ويتذيّلون لنا وينبطحون انقلبوا ثوّارا ملائكيّين"

قال صاحبي ساخرا:

"ملائكة لم تمسسهم شعب حزبيّة ولم تطأ أقدامهم مقرّات أحزاب تنسيق أو جامعات أو استعراضات...هم ملائكة أبناء ملائكة"

صمت علاّلة قليلا ثمّ أضاف:

"أمر واحد لم أستسغه في الرّواية..."

قلت في نفسي: "أو يفهم في الرّواية؟"وما أدراه بها وبطرقها وأساليبها؟ ماذا يرى مادام قد ضحك وهو يقرأ مرآته في الرّواية؟ أم يقرأ رواية أو قصّة واحدة منذ غادر مقاعد الدّراسة. هؤلاء لا يقرؤون وإن ازدحمت مكاتبهم وخزائنها الخلفيّة بالكتب والمجلّدات الفخمة...إنّ الكتب عندهم وعند غيرهم مجرّد زينة لا تضيف عن الصّحون والأواني والكؤوس التي ترصّفها العرائس لكون في "الجهاز"...علاّلة وأمثاله لا يقرؤون الأدب والفكر . ومكاتبهم الإداريّة مملوءة بكتب ضخمة الحجم، بعضها كتبها ومؤلّفون مدحا للرّئيس وأخرى إصدارات حزبيّة جمعوا فيها خطاباته في أجزاء طويلة اقتداء بالعادة البورقيبيّة.

كانت هذه الإصدارات تطبع بكثافة وتوزّع على كلّ الإدارات والمكاتب ويحفى مؤلّفوها بالتّبجيل والتّكريم .

هم يقرؤون لإبراز ولائهم ولإثباته ليس أكثر...لم أكن أعرف على كلّ حال ما شأن علاّلة مع الرّواية والحال أنّه لم يحتجّ على ما ورد فيها بخصوصه.

قطّب جبينه وكرّرها: "أمر واحد لم أستسغه في الرّواية...كيف تجعل عامان بطلا وزعيما؟ كيف تجعله بهذه الصّورة المشرقة؟ وأنت تعتمد على أقواله؟"

قلت: "ولكنّه كان..."

ردّ بتشنّج:

"لم أتكلّم سابقا. ماذا كان؟ أعرفه أكثر منك ..."

كان الحديث يحملنا إلى أحاديث جانبيّة كثيرة. فجرّنا خارج الحكاية أحيانا و يبعدنا عن سيرة عثمان مثلما يرويها لنا علالة.

خطر لصاحبي أن يسأل علالة عن الأستاذة سكينة والأولاد فردّ:

"بخير عميم...لقد حاولوا تشريدنا والتّفريق بيننا ولكنّهم خابوا هم لا يعرفون سكينة ولا يعرفون إخلاصها وحبّها لي وكرهها لهم ولانتماءاتهم. سكينة إمرأة دستوريّة أبا عن جدّ وكانت ستسلك طريقها السّياسي لولا الثّورة. كانوا يستعدّون لتعيينها في منصب هامّ أهمّ من منصبي. وهي اليوم تنشط معنا في الحزب وستكون قياديّة لامعة عندما تستقرّ الأمور...أولئك السّفّاح روّجوا لطلاقه ولفرارها من بيت الزّوجيّة...نحن نحيا على أحسن ما يرام. الأولاد يكبرون ويأخذون مواقعهم في الحياة والحمد لله..."

ردّ صاحبي :

"ينطبق عليها قول الشّاعر محمّد الصّغير أولاد أحمد:

"نساء بلادي

نساء ونصف."

ابتسم علّالة وهو يردّد:

" وهو كذلك..."

خطر لصاحبي أن يبدّل وجهة الحديث فسأل:

"...و أين سي عبد الواحد؟"

انتبهت لكسر السّين وسألت صاحبي مستنكرا حين مكّنتا على انفراد لاحقا. فقال إنّ الأمر مجرّد سخرية...هؤلاء يفرحون بمثل هذه الكلمات ويتلقّفونها وتفتح أمامهم أبواب التّرثرة...

"أيّها الثّورة..."

ردّد علّالة وهو يجيب صاحبي ساخرا:

"...سي عبد الواحد من رجال الثّورة وقياداتها..." ضحكنا جميعا بأصوات عالية. همس علّالة وكأنّه يخشى أن يسمعه أحد هذه المرّة: "نحن وقفنا معه وساندناه ووضعناه هناك..."

ردّ بصوت واحد:

"...وأنتم خارج اللّعبة؟ هل مازالت تركيبتكم نافذة المفعول؟"

فرمقنا علّالة ملء شدقيه ساخرا:

"نحن نمسك بزمام الأمور..."الماكينة" أقوى ممّا تتوقّعون..."

"في تلك الأيّام الحالكة عليكم؟

"نعم. في تلك الأيّام وفي غيرها. بريّكم دعوني في صمتي.."

وعاود صاحبي:

"...ثورة غريبة افتكّها الغرباء عنها...الثّورة الحقيقيّة التي حلمت بها الأجيال وانتظرتها. لم تأت بعد...لا يمكن الحديث عن ثورة لم تقطع مع المحاباة والتّدخّلات والقرارات العاطفيّة والارتجاليّة. لهذا وتجنّبا لمسّ مشاعر ذاك، الثّورة بناء جديد وليست شعارا في الشّوارع وسيولة احتجاج وجمعا لصور شخصيّة لتزيين صفحات التّواصل الاجتماعي...

استلذّ علّالة الزّيتي هذا الحديث...يحلو له و لأصحابه من المعزولين القدامى ومن المتمعّشين من النّظام السّابق والمرتبطين بمصالح مختلفة مع أعوانه، سبّ الثّورة وتحقيرها ونعت المتمسّكين بها بالأوهام. وقد صاروا يعبّرون عن هذه الأفكار برؤوس مرفوعة وأصوات عالية بعد عودة بعضهم إلى السّلطة إثر الانتخابات...

انفلتت أساريره ولاحت على وجهه مسحة فرح:

"...وهل تؤمنون بأنّها ثورة أو انتفاضة أو أيّ شيء من هذا القبيل؟

تونس بيعت. سيادة الرّئيس قادها بكلّ حب. كنّا نحقّق الأرقام القياسيّة...كانت تونس تشعّ وتحترم في المحافل الدّوليّة...من يستطيع إنكار هذا؟ كانت بلادنا آمنة وهادئة واليوم يفترسها الإرهاب والإجرام...

الثّورة لا يعرفها هؤلاء. نحن فقط نعرفها...حزبنا الوحيد هو حزب الثّورة وتاريخه مبنيّ على الثّورة التّحريريّة..."

ردّ صاحبي:

- يا سي علاّلة...ولكنّكم خذلتم الثّورة التّحريريّة ونسيتموها؟

أجاب علاّلة وقد بدا أكثر تشنّجا:

- هذا صيد في المياه العكرة...لقد ظللنا نحتفي بالثّورة التّحريريّة وزعمائها حتّى أيّامنا الأخيرة...

- وظلّ حبيب بورقيبة سجينا في مقرّ إقامته بالمنستير أعواما طويلة...

- ليس صحيحا...سيادة الرّئيس ظلّ يتعهّده بعنايته و يزوره من حين لآخر...

-... يزوره؟

-نحن لا نعرف سريرته...هو لم يجاهر بعدائه للزّعيم...لو قال كلمة واحدة ضدّه لانقلبنا عليه.

أوراق ينكرها عفيف

وطني المعروض كنجمة صبح في السّوق
في العلب الليليّة يبكون عليك
و يستكمل بعض الثّوار رحولتهم و يهزّون
على الطّبلة و البوق
أولئك أعداؤك يا وطني...

مظفر النواب

أواخر ديسمبر 2010

أوائل مارس 2011

شتاء كاسد. البضاعة التي يبيع كاسدة هذه الأيام والبلاد تنفجر فيها. قراء الأخبار في الإذاعات المحلّيّة يلوكون بيانات وبلاغات مقطرية نعجّ بقاموس الأزمات التّونسيّة المتعاقبة الذي تطلقه الرّابطة كالكلاب المسعورة تطارد به معارضيها والمحتجّين عليها والمعترض عليهم. هم دوما "عناصر منفلتة عن القانون ودعاة شغب ومأجورون وغرباء وكافرون بنعمة الأمن والأمان وكلاب ضالّة..."

يرفع مسيرة صغيرة تعبر أمام المقهى ويشاهد سيارات أمنية كثيرة تملأ المكان ورجال أمن يستعدّون لإطلاق الغاز المسيل للدموع...العدوى تسرّبت شيئا فشيئا. صور تبثّها قناة فضائيّة تفتح في المقهى. متظاهرون بالمئات في شوارع سيدي بوزيد يهتفون ضدّ النّظام بقوّة لم يعهدها سابقا...

كلّ القنوات العالميّة تلهج باسم محافظة سيدي بوزيد في الوسط التونسي التي تفتك الاهتمام وتقفز إلى الواجهة في غفلة

من الجميع. رجال النظام متزعجون. هذه الولاية كانت تتصدر قائمة الولاء والتأييد ويحصد فيها الرئيس والحزب أفضل النتائج فكيف مرقت اليوم و شقّت عصا الطّاعة دفعة واحدة؟

المعارضون الكبار أنفسهم لم ينتظروا يوما أن تفعلها هذه الجهة وتصعد لتفكّ عقالهم وتزعج النظام وتربكه...لا أحد يعرف حقيقة ما جرى...

بعض الحزبيين تدبّروا الأمر...هؤلاء بدو ويمكن أن نسترضيهم ونغازلهم بشعارات بسيطة ووعود صغيرة، فحزموا حقائبهم ونزلوا خلسة بالمدينة.

الرئيس يزمجر في وجوه مساعديه و رجاله هنا وهناك مذهولا من التطورات المفاجئة...يمهلهم أياما لتهدئة الوضع أو عزلهم واحدا واحدا...ليس لأنّ سياساتهم فشلت هناك، بل لأنّهم كانوا يكذبون عليه ويصوّرون له هذه الجهة البسيطة جهة مناضلة وموالية.

توجّهوا قوافل إلى سيدي بوزيد لإطفاء النار الملتهبة تراودهم نوايا كثيرة...صحفيون جاء أكثرهم ليزعم أنّ ما جرى تم تهويله وتضخيمه وهو مجرد تحرّكات معزولة لعناصر مشاغبة ومأجورة وغريبة عن الجهة وأنّ المواطنين يهللون للنظام ويحرسونه وسياسيّون جاؤوا ليظهروا في صورة المصلحين والمهدئين والمحبوبين القادرين على التأثير في الشارع، طمعا في تكريمهم بعد نهاية الأحداث وتسجيل ذلك في حسناتهم وتعيينهم في مناصب هامّة. يتدافعون أمام المصادح والعدسات، متحدّثين عن المصلحة الوطنيّة وداعين إلى التّعقّل والهدوء ومبشّرين بالإصلاحات والانجازات والانتدابات القريبة...فكّر عفيف ملّي وهو يرتشف قهوة. لا بدّ أن يكون داخل المشهد وأن يستغلّ هذه الأحداث لتحقيق مآربه...في الساعات القليلة القادمة يجب أن يحلّ ركبه في مدينة سيدي بوزيد "مبعوثا سرّيا من فخامة الرئيس"

فجرا كان متأنّقا في محطة منصف باي. يلحّ على سائق سيارة الأجرة بالسرعة لأنه يريد أن يدرك المسيرات الصّباحية التي ستقام هذا اليوم...

* * * *

صباح شتويّ بارد...نشرة السابعة على الإذاعة الوطنيّة تبدو افتتاحيات حزينة لأصوات منهكة.

علالة الزيتي رابض في مكتبه منذ السابعة صباحا مضطربا وأصفر الوجه. تعليمات سي عبد العزيز صارمة. لا بدّ من متابعة دقيقة للوضع. يجب أن نكون أوّل من يتلقّى المعلومات حتى نرفعها إلى السّلطة قبل أن تسبقنا المصادر الأخرى. أخبار الصباح ليست على ما يرام...أنباء عن تحركات جديدة داخل المعتمديات ...طاف بهاتفه على المعتمدين واحدا واحدا وتفقّد بعض عيونه في الجهات. الكل يحدّثه عن تحرّكات ليليّة عنيفة واشتباكات غير مسبوقة. أخبار منزل بوزيّان تملأ القنوات الفضائيّة. أنباء عن سقوط شهيد وإصابة آخر في حالة حرجة تمّ نقله إلى مستشفى صفاقس...سي عبد العزيز يهاتفه بصوت حادّ: "يجب أن نعثر على الحلّ...سيهلكوننا...أنباء عن تحويرات قريبة..."

أمني ينتمي إلى فرقة الإرشادات يطلب موعدا عاجلا للنظر في ملفات بعض الذين تم إيقافهم البارحة في منزل بوزيان...

ردّ علالة متوتّرا: "وماذا ستسجّل الآن؟ مئات الوجوه ضدّنا... ليس لدينا معلومات جديدة...لا معلومات لدينا...كلّ معلوماتنا قديمة خاطئة. الذين كنا نظنهم معنا، شامتون بنا ويسيرون في الشوارع ضدّنا..."

ينهض علالة في مقعده الوثير . يلقي بالهاتف ويضع يده على جبينه

"...الأزمة كبرت ولا حلول في الأفق...ماذا ستفعل الآن؟ منزل بوزيان عصيّة ولا يمكن إخضاعها ولا تهدئتها."

هاتف مسؤولين حزبيين هناك. لم يردّوا على مكالماته... فجأة طرق الباب و دخل حاجبه مسرعا...: "سي عفيف..."

تمتم: "...أي عفيف؟"

ردّ الحاجب هامسا:

"مبعوث خاص من سيادة الرئيس..."

احمرّ وجه علالة، وتسارعت دقّات قلبه وهو يخرج على عجل مرحّبا بالضيف ومدخلا إيّاه إلى مكتبه ومشيرا على الحاجب بإحضار قهوته وإفطاره الخاصّ.

تذكّر هذا الوجه. يعرفه جيدا ولكنه لا يذكر إسمه. يذكره في أروقة مؤتمرات الحزب والمناسبات العامّة التي يدعى لها في العاصمة ولكنه لم يكن يعرف مهامه...جلس عفيف قبالته وأبلغه تحيّات سيادة الرئيس له شخصيا: "سيادته أسدى تعليماته لي هاتفيًا البارحة وطلب مني التّوجّه إلى سيدي بوزيد، سيادته يريد الحقيقة ولا ثقة له في كثيرين...أوصاني بالاعتماد عليك رأسا ...ذكرك حرفيًا...مرّت حروف إسمك على لسانه المبارك... نطق إسمك بكل فخر وثقة...أحسست أنه يكنّ لك محبّة خاصة..."

لان علالة الزيني وتهلّلت أساريره وانشرح صدره وهو يردّد:

"نحن ثابتون على العهد...نحن على ولائنا لصانع التغيير..."

راودته أحلام كثيرة، لعلّها الأحلام تنهض من خلف أكوام الرّماد والحرائق، بعض أيّام وتعود الأمور إلى نصابها...يجب أن أنتهز الفرصة. هذا العفيف مفتاح ساقه الله لي لمزيد النجاح والغوص نحو الأعمق...

قطع عفيف تفكيره:

"لا أخفيك سرا...المرحلة مرحلتك...أنت أمام فرصة تاريخية لكلّ هذه الرّؤوس مستطير وتظلّ أنت شامخا...لديّ معلومات وتعليمات...سيادته مؤمن بك ومن يؤمن به سيادته فلا خوف عليه.."

ابتهج علالة وهو يسمع هذا الكلام ويقرّر أن يلعب لعبته. فرصة كهذه لا يجب أن تضيع...ثمّ شمّر عن ساعد الجدّ...

* * * *

حين وصل إلى سيدي بوزيد، قرّر أن يكون علالة الزيني نقطة انطلاقه.

هو الذي سيفتح له أبواب الجهة.يعرف جيدا كيف يمكن ترويضه.

جلس أمامه وراح يبلغه السّلام من هذا وذاك...تحيّات يهتزّ لها علالة ويفرح لأنها توحي له بمكانته في العاصمة وتنسجم مع تصوّراته التي يزعمها للناس وطموحاته البعيدة...انطلاقا من مكتب علالة الزيني ظلّ عفيف مبعوثا شخصيًا سرّيا للرئيس مثلما يصف نفسه. يهاتف ويراسل ويبعث تقارير يزعم أنّها تصل مباشرة إلى مكتب سيادته ويحظى بإقامة فخمة وعناية فائقة. علّالة وفّر له شقة في نزل بجهة قريبة ووضع على ذمّته سائقه عبد الواحد وسيّارته نادية الشرقي، موصيا بتجويد الخدمات غامزا إياهما" عين سيادة الرئيس...طمئناني عليه."

...عفيف يطوف هنا وهناك...يكتب ويرسل ويزعم ويزعج بطلباته الكثيرة، سينقذهم وسينقذ المتساكتين. يزعم أنّه مكلّف بمهام عاجلة ويعد بحزمة قرارات ومقترحات فهو بصدد تشخيص الوضع الاجتماعي والسياسي بالجهة وحال عودته سيعرض الأمر على الرئيس وتصدر القرارات .

كان عبد الواحد لا يهدأ في تلك الأيّام ولا يكفّ عن خدمته ومرافقته وهو يفتخر بأنّه على ذمّة رجل القصر...

يقف عفيف اليوم أمام النّاس وفي المنابر التلفزيونية متحدّثا عن الثّورة والحرّيّة والكرامة وما إن يشاهده عبد الواحد يهتف:

"تفه ...لعنة الله على الأزلام... "

قال له أحدهم يوما ذات لقاء تلفزيوني عاصف:

"ماذا كنت تفعل في سيدي بوزيد أواخر ديسمبر 2010؟"

فقال بلا خجل:

"كنّا نناضل من أجل الوطن ونقود الثورة. الثّورة صُنعت بأيادينا، نحن قدناها وأجّجناها. ساندنا أهالي سيدي بوزيد في أوج محنتهم، وانتقلنا إلى عين المكان، وهتفنا مع الهاتفين بإسقاط النظام...لا تسمعوا التشويهات."

يقول عفيف ذلك ويكرّره كلّما عنّ له...

* * * *

يفعلها عبد الواحد، يبصق على الشّاشة ويزمجر وهو يتابع عفيف ويلعن الثورة المضادة...إنّه الزّمن المضادّ. عبد الواحد يهتف باسم الثّورة. من يصدّق هذا؟ ومن يصدّق كيف أمن جانبه أولئك الذين قضوا سنوات في سجون بن علي وارتضوه بينهم؟ كيف تناسوا ما كان يقترفه؟ هل أنّ أمورا أخرى دبّرت بليل أم هم يتّخذونه جسرا لتحقيق مآربهم وسيلقون به حالما يستتبّ لهم الأمر؟

يقف عبد الواحد في صفوف الحكّام الجدد زاعقا باسم الثّورة. يتصدّر مع بعضهم موكب الاحتفال الهشّ بذكرى السّابع عشر من ديسمبر ويستضيفه الإعلام لتقديم الاحتفالات الجهوية والحديث عن ذكرى الثّورة و طموحات الأهالي...هذا الاحتفال

الذي تصوّب له السّهام من كلّ الجهات حتّى صار مألوفا أن يلتقي موعده مع موجات شرسة من السّبّ والشّتم لمحمّد البوعزيزي وسيدي بوزيد...

في تلك الواقعة التّاريخيّة التي جدّت صباح الاحتفال بالذكرى الثّانية، طارت صورة عبد الواحد إلى العالم وهو يقف مع الذين احتشدوا في المنصّة وحشروا أنفسهم مع الوفد الرّسمي. لم يكن بعيدا عن منصف المرزوقي وبن جعفر في ذلك المشهد الذي أنهته حجارة طائشة لم يعلن عمّن رماها ولم يظهر في وسائل الإعلام حتى الآن ليتباهى ببطولته ولعلّه يخرج علينا يوما في ثوب الأبطال وصنّاع التّاريخ...

عين ترى عبد الواحد في مواكب الثّورة يتملّكك الإحباط وتظهر بالهزيمة ويقفز أمامك صوت الكاتب حسن بن عثمان في فقد السّهرة الانتخابيّة، سكرانا أمام محدّثه:

"ثورة ماذا أيّها الأبله؟"

كيف فعلها عبد الواحد؟ هل دفع به الحزبيّون القدامى نحو الواجهة متلمّسا زعم علاّلة؟ هل فعلا كان هناك تواطؤ ما...

أتذكّر الآن صديقي الأستاذ وهو يهمس لي:

"إنّ فاتحات الأزلام لم تخل أيضا من المحسوبيّة. فلقد حجب عنها البعض أسماء أقاربهم وأصحابهم..."

لا أحد يعرف كيف قفز هذا الثّعلب ونطّ من الأزلام إلى الثّوّار ولاذ به رافعوهم ويصرخ فيهم و يوجّههم

ويعلّق على أحد الاحتجاجات النّقابيّة في تصريح لأحد الصّحافيين الإذاعيّين قائلا:

"هؤلاء أنصار الثّورة المضادّة وبقايا النّظام السّابق...لا يريدون لتونس أن تستقرّ ونحن لن نفرّط لهم في الثّورة وفي مكاسبها...

على الاتّحاد أن يتحمّل مسؤوليّته ويكفّ عن هذه السّياسة المريكة للبلاد والعباد...كفى البلاد إضرابات واحتجاجات..."

ماذا فعل عبد الواحد وأمثاله؟ هل دفعوا أم قبضوا ليظهروا بهذا المظهر الجديد...كيف انقلبوا بهذه السّرعة ومرّوا سالمين؟

* * * *

اليوم الأخير من ديسمبر، حزم عفيف أمتعته وغادر مدينة سيدي بوزيد...عاد بجيب منتفخ وقائمة طويلة من أرقام الهواتف ومحفظة مكتنزة برسائل بعث بها أصحابها إلى الرئيس: شكاوى شخصية ووشايات ومقترحات وغير ذلك مما جادت به قرائحهم.

عائلة تدبّر الأمر...جمع له هدايا ماليّة من هنا وهناك، فرصة سانحة لكي يكون له مفتاح جديد في المنبع...ستمضي الأزمة ونرجع كما كنا ويبدأ الحساب. سيجد له موطئ قدم في العمر ومآرب أخرى. لا تنس أن تبلغ تحياتنا إلى فخامة الرئيس. نحن على العهد وسننجز ما يريد. بعض أيام وتعود الأمور إلى نصابها...لم يكن عفيف مرتاحا رغم الغنائم التي كسبها. فالأمور متدهورة والأحداث تشعّبت...لم يطق البقاء أكثر...ليلة رأس السنة على الأبواب. ليلة يخيّرها على كل هذا التعب ولن يضيعها

* * * *

جانفي 2011

يقبع عفيف في حانة هادئة أدمن التردد عليها منذ أسابيع وذا في الظفر بنادلتها التي أعجبته واستطاع أن يقرّبها منه وأغراها بالمال والهدايا، المبلغ الذي تدبّره من عائلة وأصحابه رفع من الكساد والإفلاس. هو الآن ينفق الأموال بمنة ويسرة. يأكل ويشرب ويدفع معلوم ما يشربه الجلساء وعمولة النادلة. يغادر في

...ا...ا متمايلا بين أزقّة المدينة ولمّا يشعر بالتعب والانهيار ويتيه في الشوارع العاصمة يوقف سيارة أجرة لتقلّه إلى منزله...لا صلة له بالعالم الخارجي. سأله أحد النّدماء عمّا يجري فردّ: "تحترق أو لا تحترق، ستهدأ وتعود الأيام الخوالي، سيقمعونهم ويسجنونهم ويخرج الناس في مسيرات فرح وتأييد..."

يهاتفه عائلة وأصحابه للاطمئنان عليه وعلى سيادة الرئيس وقطع الصلة وتنسّم الأخبار فلا يجيب، وإن أجاب يردّ باقتضاب:

"في اجتماع مع سيادته..."لم يضحك في داخله... هي كذبة وقال ألا يمكن أن تصبح صحيحة؟ لعلّ الأيّام تتبدّل...من أدّوا يوما في مثل هذه المهام لم يكونوا أفضل منه.

صرّح للمراسلين في سيدي بوزيد بمناصرته لسيادة الرّئيس وحثّ الناس على عدم الإنصات لمن يريدون التفرقة بينهم وبين والدهم. وكتب مقالا مطوّلا أرسله إلى بعض الصحف ولكنه لم ينشر بعتقد أنهم لم ينشروه لا تعفّفا واحترازا وإنما غيرة منه وحسدا فما خطّه بقلمه عجزوا عنه وصدور المقال قد يجلب له الكثير من تقدير الرئاسة والحزب ويلفت إليه الانتباه. لم ينشروا المقال ويخشى أن يكونوا قد سحبوا إسمه وأمضوه بأسمائهم... أيام عصر من هذه الأيام التي عمّ فيها الغضب وانتشرت المسيرات والاشتباكات وسال الدّم،رنّ هاتفه:

الرئيس يغادر البلاد...أنا في الطّريق إلى وزارة الداخلية...

رة على عجل و دون تفكير:

"ريح السّد نهرّ ما تردّ...نلتقي هناك...تحيا الثّورة"

نهض من مقعده وسار مترنّحا في الشّارع الكبير...الخمر الذي شربه منذ الصباح يفعل فعله...تحامل على نفسه وحثّ الخطى. الساعة ليست بعيدة...بعد دقائق كان وسط الجماهير المحتشدة التي عجّ بها المكان وتزايدت أعدادها بعدما شرعت قناة

تلفزيونية في بث مشاهد المتظاهرين وسرت إشاعة مغادرة بن علي وقبل أن يظهر محمد الغنوشي ويعلن الخبر...لعبت بالخمرة وزادته الرّياح وصراخ الجماهير سكرا فردّد:

"خبز وماء وبن علي لا
خبز وماء وبن لا
خبز ماء علاء
خبز بورقيبة بعشرين ...
بورقيبة الحنين الماء بعشرين
خبز ودبوزة وبورقيبة لا...
خبز زنا بن علي لا..."

ازداد هذيانه في ذلك الغروب التونسي الاستثنائيّ. كانت الشمس تغرب ومعها يغرب زمن سياسي.

لا يعرف عفيف كيف غادر المكان ولا كيف انتهت ليلته. لا يذكر شيئا غير هتافه مع الهاتفين و بداية مغادرة الجموع للساحة وانتشار رجال الأمن في كل مكان...في الصباح فتح التلفاز استمع إلى بعض الأخبار ولاذ بصمت طويل...أغلق الهاتف واختفى...بحث عنه السارد كثيرا فلم يعثر عليه...تلك الحانة مغلقة والمقاهي تلفظ أمثاله هذه الأيّام.

* * * *

فيفري2011

"ما أحلى القعدة على المنّة ما أحلى الربيع
ما أحلى الثورة التونسية تضمّ الجموع
راجع راجع يا بلادي عبر الجبال
وين نتلاقى أندادي ع السّاحة رجال
راجع راجع يا بلادي عبر الحدود

وين نتلاقى أندادي ع الساحة سهود
يا امي يا خواتي لا تحزنوا
نور الثورة في قلبي مازال حي"

يردّد عفيف مع المردّدين وكلّه حماس واندفاع...

يستوقفه مراسل تلفزيونيّ فيصرخ:

"جئنا من أجل الثورة ومن أجل كنس هذا النظام الطاغي وأزلامه...لن نقبل بوجوه النظام البائد في الحكومة أو في أي مكان. أقول لهم لا مكان لكم بيننا...التحقوا بالمخلوع...لا بدّ أن يواصل الشّعب مشواره لتحقق ثورة الحرية والكرامة أهدافها."

يسترسل في كلمته متوهّجا وخلفه هتافات الجماهير غير أنّ المراسل سحب منه المصدح وانتقل إلى معتصم آخر ...

ها قد ظهر عفيف في اعتصام القصبة ورابط مع المعتصمين ليلا نهارا. لا ينفصل عنهم إلا في أوقات قليلة. عرف عشرات الفنان والكهول القادمين من مختلف جهات الجمهورية. وقضى معهم أياما حاشدة. صراخ ثوري ومغامرات وأناشيد وحكايات عن بطالات وإيقافات وأيام الحكم الذي ولى...

قلوب خافت الويل جاءت تفرغ كربها ووجوه استلذّت النشاط السياسي الذي عاشته لأول مرّة فاسترسلت بدورها في الحضور في كل التحركات السياسية حاملة الكثير من الأماني ومقتحمة عالما جديدا لا عهد لها به. طلاب وطالبات قادمون من جهات بعيدة في أسابيعهم الأولى بالعاصمة يستلذّون هذه الحياة الثورية الممتدة في كل مكان...لا سلطة ولا نظام ولا دراسة ولا آباء...أبواب جنة تفتح ووعود جمّة لم يجنها لاحقا إلا قلة ممن استطاعوا شقّ الطريق وعرفوا من أين تؤكل الكتف...

يطلق عفيف سيل مزاعمه على الحاضرين فهو أيضا من جيل السبعينات وشهد أهم المحطات النضالية في البلاد. يزعم لهم ما

لذّ وطاب من الذكريات والبطولات. يحدّثهم عن سنوات دراسته الجامعية وعن بطولاته ومساهماته في مختلف الأحداث وعن الرقابة الأمنية التي لزمته طوال عمره معبّرًا عن "هرمه من أجل هذه اللّحظة التّاريخيّة"...

في هذه الأيام تعرّف إلى عثمان الشرقي. حصل تقارب بينهما اندمجا وتبادلا الحكايات واليوميات. وأصبحت تجمعهما ذكريات مزعومة وأحلام بعيدة.

لمّا ألقى محمد الغنوشي خطابه الأخير، باكيا ومعلنا الاستقالة وتهيّأ المعتصمون للعودة إلى ديارهم مردّدين "إن عادوا عدنا" جمع بعض الشّباب وفاتحهم في ضرورة اقتحام العمل السياسي ومواصلة النّضال. لا بدّ من التنظّم في حزب جديد...بارك الحاضرون الفكرة وتواعدوا على تحقيقها. وعادوا إلى ديارهم ومضى عفيف يكتب البيان التأسيسي ويرتّب ملفّا ليتقدّم بطلب ترخيص في النّشاط القانوني.

نادية الشّرقي

عبد الواحد دفعة واحدة!...إنّك في
المستنقع يا "للاّ وردة "
من عبد الواحد هذا؟ من يكون؟ مجرّد
شخص رخيص لا قيمة له، هو كلب
لأسياده ويوم يذهبون سيذهب مسعورا،
قد شاهدتك ذات سبت، كنت في
سمرفند، رأيتك بجانب المكتبة أنت
وابنتك وعبد الواحد، آه أيّ عار
هذا...أفعلتها يا عبد الواحد ودست على
شرفنا وكرامتنا؟"

(من رواية ملائكة الزبد)

نادية أيضا غيّرت شهادتها على العصر...نقّحت فصلا روائيّا سابقا وطهّرته من إسم عبد الواحد. حذفت إسمه في مواقع عديدة وأبدلته بعلاّلة ويبدو أنّ السّارد أيضا تواطأ معها في بعض المقاطع. محت تاريخها معه وتستّرت عليه. هل كان ذلك بمحض إرادتها أم أنّها ضغوط مارسها بعضهم. فعبد الواحد أصبح من رجال السلطة اليوم، وهو مقرّب من والدها؟

التفتنا إلى عنوان بارز في صحيفة يوميّة:

"جمعيّة وردة توزّع مساعدات على عدد من النّساء ورئيستها تعلن عن جوائز سنويّة..."

تأمّل علاّلة المقال وضرب الطّاولة بعنف:

- ...إنّه نكد الدّنيا...

ردّ صاحبي:

- إعلام عار يا علاّلة...

عقّبت:

- بل إعلام العار الجديد...

تساءل علاّلة متحفّزا:

-كيف؟ من كتب هذه المهزلة الجديدة؟

تأمّلنا المقال. أجبته:

- صاحبك سعيد يا علاّلة...

ضحك علاّلة بصوت عال:

كنّا نسخر منه ونستغلّه...إنّه يأكل بأصابعه لا بثدييه...

دوّت ضحكاتنا السّاخرة فأضاف:

- لا يجيد كتابة فقرة...كلّ مقالاته نكتبها له ونمليها عليه ويكتفي بوضع إسمه أسفلها.

- ولكنّه اليوم يقدّم نفسه صحفيّا كبيرا ويعدّد إنجازاته.

زمجر علاّلة:

- كبير في الارتزاق...

ثمّ أضاف:

- نكد الدنيا...أرأيتم الزّمن؟...أرأيتم الغدر؟..."اتّق شرّ من أحسنت إليه"...نادية تلك...جاءت يومها تطردني وتخرجني من المكتب...لم تخجل إطلاقا...لولاي لأكلتها وأمّها الذّئاب الجائعة

عقّب صاحبي: "هههه ولكن بفضلك أكلتهما الذّئاب السّمينة"

انخرطنا في نوبة ضحك جماعيّة...

عاد علاّلة إلى الحديث منشرحا:

- هي التي استدرجت الجميع. هذا وجه آخر...بفضلنا تسلّلت إلى كلّ المكاتب وأصبحت ذات شأن. كانت تقبض أموالا طائلة.

إن كان تستغلّها مثلما تزعم، بفضلي كان زبائنها من المرفّهين وكانوا يدفعون لها بشهامة ويدفعون لأمّها...

أقمنا ضحكا طويلا مرّة أخرى.

قال صاحبي:

- دعونا من أمّها...اذكروا موتاكم بخير...هي في دار الحقّ...

استر ما ستر الله يا علاّلة...

رسالة إلى هيئة الحقيقة والكرامة

المرسل(ة): نادية بنت النّاصر الشّرفي

الصفة: رئيسة جمعيّة الشّهيدة وردة للمرأة الجديدة

المدعو به: علاّلة الزّبني

الموضوع: استغلال جسدي

المحاضر:

مقتطفات من رواية علاّلة الزّبني

تحيّة طيّبة وبعد:

إلى المحضية أسفله أتوجّه إليكم بهذه الرّسالة لأكشف عن الممارسات التي قام بها ضدّي وضدّ عائلتي المدعو علاّلة الزّبني المسؤول الحزبي السّابق وأطالب بتتبّعه والتّعويض لي ولوالدتي.

والسّلام

نادية الشّرفي

رئيسة جمعيّة وردة للمرأة الجديدة

* * * *

ذكرى منقّحة

كانت لي طفولة حالمة لكنّها سرقت فجأة...لم أكن أدرك حينها الأسطة الفارقة في حياتي، لم أفهم تفاصيل ما جرى، كانت

القرية باسمة. الأغنام تثغو والديكة تصيح وعربات البدو تمر محملة بالعشب أو الزرع والكلاب تنبح وأبي النّاصر يرفل في جبّته ويترنّم بقراءة القرآن. يؤمّ أهل القرية ويقصده النّاس لمشاورته في أمورهم خلفا لجدّي الرّاحل وعمّي عثمان لا يتخلّف عن إهدائي الحلوى وغيرها من الهدايا. فجأة حصل ما لم أدركه آنذاك...لم يصبح أبي معنا...قالت لي أمّي في اليوم الأوّل إنّه خرج باكرا...ثمّ صارت تماطلني وتختلق الأفكار حتّى لا تحزنني وطال الغياب ...لم أعرف أنّه سجن إلّا بعد أسابيع...

بدأت حياتنا تسوء...

تمزّقت ملابسنا وندرت مؤونتنا. صرت خجولة من أسمالي أمام تلامية الإعداديّة....انتقلت إلى المقاعد الأخيرة...تراجعت النّتائج. ربحت. ذات عودة مدرسيّة حاولت الانتحار. وردة قرّرت ولا أحد يستطيع إثناءها عن قرارها...منعتني من مواصلة الدّراسة ...دافعت عنّي جدّتي...ثار عمّي عثمان يومها...جاء الحاج عبد السّلام غاضبا لكنّ وردة حسمت الأمر...

قبعت جدّتها وقد صرت أفهم ما يجري بعمق...أمورنا تحت الصّفر...الأهل ينكروننا. يتجنّبون الحديث معنا. من يزورنا يخاف عيون العمدة.

بدأت وردة تفكّر في أمور خطيرة...أبي النّاصر لن يعود إلينا وإذا حصلت المعجزة وعاد فمصيره بائس. العمدة يشير أوهامها أنّ المساعدات ستتدفّق عليها بمجرّد طلاقها وامرأة عجوز أكملت إقناعها "أنت صغيرة شابّة فلا تخسري عمرك مثلي...بعد الطّلاق سيطلبون يدك وتتزوّجين أمّا البنت فكبرت وستتزوّج...لا تدمّري نفسك..."

في يوم مخمون بالدّموع والحزن، كان الطّلاق الغيابي وجاءنا عمّي عثمان مخمورا في اللّيل وتشاجر مع أمّي وردة. هدّدها

وداعها أمّا هي فكانت تجمع أدباشنا "غدا سأتركها لكم...غدا أرحل".

فجرا حلّت الشّاحنة...ملأنا الأدباش البالية وطرنا نحو مدينة سيدي بوزيد...وردة رتّبت كلّ شيء...اكترت مسبقا بيتا في حي شعبيّ وانطلقت رحلتنا مع الحياة الجديدة.

طرقت أمّي أبواب المسؤولين الجهويّين فلم يستقبلها أكثرهم ومن استقبلها منهم ماطلها أو صدّها...مرّات عديدة أخرجها الحاجب بعنف تحت صراخ المسؤول وارتعاشه...

"راجلك خوانجي...تحب تقصلي راسي...أخرج...أخرج"...

لم تحدّث أحدا منهم بحكاية زوجها النّاصر المسجون هناك إلى أمد مجهول...هذا الزّوج الذي تركته وتركت قريته للأبد... ولكنّ الخبر سبقها...الوشاة لا يتركون سرّا...استسلمت وردة... فوهدت أيّاما حذو ضريح الوليّ الصّالح سيدي بوزيد تتسوّل ثمّ علّمتني زمام الأمور فخرجت لأخوض معركة الحياة...قادتني عارة شابّة إلى هناك...إنّها معركة وسلاحها واحد يا نادية... مسألة حياة أو موت...كسّري كلّ القيود وحلّقي عاليا...هنا لا أموال ولا أعمام ولا أهل قبيلة يزمجرون ويهدرون، لا تعطي اعتبارا لأحد واهجمي على الحياة بهذا الجسد الذي تحسدين عليه، ازحفي على بقايا الخجل والأقفال والأحزمة وانطلقي في الأفق. هؤلاء الذين يتحكّمون في الجهة لا يقدر أكثرهم على الصّمود أمام نظرة حسناء...إنّهم يلهثون خلف النّساء...افعلي ما أوصيك به...ستضربين في الأرض بحقيبتك اليدويّة ويهلّلون لك.

أعدتني إلى علاّلة ذات صباح...ظلّ يماطلني وأنا أندفع نحوه بعيدا عن شغل...لا حلّ لي...مكتب التّشغيل لا يقدّم الخدمة إلاّ بعد هذا أو ذاك، اجتاحني علاّلة...صرت أسيرة له في انتظار أن يحرّرني...صرت ألهث خلفه هنا وهناك وأرافقه أينما ذهب

والتي له كلّ طلباته. صرت أختلي به...أنزع له الحذاء وأدلّك
قدميه وأصبّ له كؤوس الخمر وأنام معه وأمّي وردة تعلم ذلك...
وأهل القرية يعلمون. ...
وعمّي عثمان يعلم. ...
يرمقني بنظرات قاتلة ولا يكلّمني كلّما اعترضني...وأحيانا
يطلق خلفي صوته ..."يا مومس...يا كلبة الكلاب...تفه...تفه"
كلّما اعترضني في أنهج المدينة أشحت عنه بوجهي وسارعت
بالهروب فهو يتوعّدني، ويحدّث الناس بأنّه سيذبحنا جميعا أنا
ووردة وعبد الواحد وعلالة، يقول إنّه سينحرنا بسكّين واحد
وكلّما سكر يوم السّبت إلاّ ويبحث عنّا في الأزقّة المجاورة
للحانة...أهل الحيّ يعلمون وعمّي عثمان يعلم والأستاذ عبد
الفتاح مازال يغرق في حلمه...يبدو أنّه لم يستسلم بعد
ولم يترضني...صار شبحا آخر فهو مثل عمّي عثمان، نسمع
به...يعترضني وسط المدينة فأعرّج على أوّل زقاق. أراه
يجرّ بطيء قامته ويطلّ كي يراني وأحيانا يلتحق بي. يلقي
عليّ قصائد غزليّة ...

* * * *

مقطع حذفته نادية من شكواها:

عبد الواحد الذي يصفّقون له في قريتنا الصّغيرة ويعوّلون
عليه مصالحهم وإبلاغ مطالبهم التّنمويّة ويوكّلونه على
شؤونهم في مبيت المعهد صار يعدني بالزّواج، وردة
تنتظر فرصة لتستشير الحاج عبد السّلام لكنّ الحريق
الذي اشعلته ذات سبت حذو مقام الوليّ الصّالح وأهرقت
ماءها وصرخ في وجهها...هو أيضا وصلته الأخبار و

* * * *

مقطعات من محضر التّحقيق مع الحاجب عيسى

هل كنتم آنذاك بحاجة إلى موظّفة جديدة؟
لا

لم واصلت إجراءات الانتداب؟
لا أعرف...كان انتدابا سريعا...
هل كانت تعمل حقّا؟
لا...كان حضورها شكليّا...
هل كانت تغادر على متن سيّارته الشّخصيّة؟
نعم هل السّيارات الشّخصيّة والإداريّة على ذمّتها...
وهل كانت تمارس نفوذا عليكم؟
لا علم لنا بها.
كنتم في عملها أم....؟
كانت حاضرة منذ اليوم الأوّل...
هل تعلمون من أين ينال سائقه الشّخصي عبد الواحد الأجر؟
من ميزانية الإدارة ...

من ميزانية الإدارة ...أموال الشّعب يا سيّدي.
هل كان يكلّفك بمهامّ خارج العمل؟

كان يطلب الخمور والمأكولات...

كان يأتي كلّ مكان يقصده...
يقصدها؟

- دار وردة مثلا...
- فقط
- وكان هناك حوش شترية الهمامي في الرّيف...
- إيه من شترية...من يستطيع الحديث معه الآن...هو أصبح ثوريًا ويخطب في الشّوارع...
- ثورة يا سيّدي...
- هل تعرف أسماء من يرتادون دار وردة؟
- نعم ! ولكنّي سأمتنع عن الجواب...ستكون إجابتي فتنة من هذه! وهل مازلنا في بلادنا نخشى الفتنة؟ أي فتنة أكبر
- لا أريد أن أتسبّب في قطع الأرزاق وتشويه سمعة النّاس أنتم تعرفون ولستم في حاجة إلى معلوماتي...
- علينا أن نفتح ملفّ دار وردة...
- ذلك شأنكم!
- حسنا! نعود إلى علاقته بالمدعوّة نادية: يقال إنّه كان يختلي بها في مكتبه
- نعم...كان!
- وكنت قريبا في المكتب؟
- نعم...أحيانا يطلب منّي أن أغادر
- هل كنت تسمع شيئا!
- طبعا...كانت أصوات الارتهاز تبلغني...
- إذن ثمّة خفاء! لماذا كنت تتستّر على هذا؟
- كان يهدّدني. لقد مرّت بتلك الأرائك كثيرات... لا فائدة من مواجهته. فهي ليست الأولى...
- أنت متواطئ مقابل رشوة!
- أبدا...لم يكن يهمّني أمرهنّ...تلك أجسادهنّ...

- أصبحت ليبراليًا يا عيسى؟
- المحافظة على خبزي وخبز أولادي أهمّ من المحافظة على أوراق الموسمات...
- هل شهدت حفل زواج علالة من سكينة؟
- طبعا...كنّا يومها مجندين لإنجاح الحفل. كان معنا عمال وسواق سيارات من إدارات عديدة. كان يوما عظيما...
- هل تعلم كلفته؟
- عشرات الملايين...
- هل كانت من ماله الخاص؟
- لا! بعضها تبرّع به فلاّحون ضغطوا عليهم والبعض الآخر جاؤه أطراف مختلفة...
- من دفع أموال الفرق الموسيقية؟
- اللّجنة الثّقافيّة والمهرجان...
- كيف؟
- اعتبروا ذلك حفلا نظّموه في المهرجان
- والذّبائح الكثيرة؟
- جاؤوا بها من الفلاّحين.. تكفّل بجلبها بعض العمد وبعض رؤساء الشّعب...
- والتّجهيزات؟
- تمّ الاقتناء بفواتير الإدارة ...
- فواتير الإدارة ...
- نعم...سجّل الأمر كأثاث لقاعدة الإدارة
- هل تعرف له أملاكا أخرى باستثناء المنزلين والسّيارتين...
- له أرض فلاحيّة في إحدى القرى
- من أين جاءته؟
- لعبة ما !

- هل لديك تتبّعات ضدّه؟ هي فرصتك اليوم...
- ولماذا أتتبّعه؟ كيف أتتبّع من كان يطعمني؟!
- مازلت مخلصا له إلى اليوم ؟
- لا مشكل لي معه ...
- ولكنّه كان لصّا؟
- كان إيه...أمّا أنا فكان مورد رزقي يأتيني منه ...
- يبدو أنّ الولاء الحزبي مازال مختفيا في ذهنك؟
- لم يكن الحزب يعنيني...
- أنت يا عيسى...تقول هذا الكلام
- نعم...كلّ ما كان، هروب من الفقر وسدّ لأبوابه.
- هههه ... هههه ...
- نعم لا تضحك! الخبز سيّدي المحقّق...أنا الآن عاطل عن العمل منذ ذهب علاّلة...

...هل كان عثمان وهما؟

ماذا يفعل عثمان الشرقي وهو يسند عفيف ويرفع ذراعه ويهتف باسمه؟

هل هو مجرد ابتزاز أو كراء أم وجد ضالته والرّجلّ الذي يجسّد عليه فعلا؟

قال جليسي بصرامة:

"لا...لا...لا تفكّر هكذا، أنت تعرف عثمان أكثر منّا وصنعته في محلّته...عثمان لا يمكن أن يخون ولا يمكن أن يكون مع وعلى مرتزق..."

قلت في انزعاج:

"ولكن ما معنى أن يكون في طليعة صفّ العفيف؟"

لم يجد صاحبي إجابة مقنعة فتمتم:

"لعلّك لم تشاهده فعلا والتبس الأمر عليك.الصّور التّلفزيونيّة غير واضحة وإن كنت شاهدته على الفيسبوك فذلك "فوتوشوب" ...هوّن عليك هذا تشويه وافتراء. عثمان لا يخون. عثمان لا يكون إلا في صفّنا..."

هل كان عثمان الشرقي وهما من أوهام حياتي؟

يبدو هذا السؤال واحدا من أسئلة كثيرة تطرح بعد الثورة. لا أريد أن أجيب عنها بنعم حفاظا على ذاكرتي الجميلة، حفاظا على ذاكرة تتلاشى آمالها وتكتشف باستمرار أنها خدعت، صور بائعة كثيرة لاحت في السنوات الأخيرة لكننا نتجاهل بشاعتها حفاظا على بقايا أمل...

لا أريد أن أقنع نفسي بإجابة صادمة...

عثمان اختار صفّ عفيف رسميًا...بالأمس جمعوا الأنصار ودشّنوا مقرّ حزبهم في المدينة استعدادا للانتخابات القادمة واتّخذوا لهم أحد الدكاكين الصّغيرة مقرّا. وأعلنوا تعيين عثمان مسؤولا جهويّا للحزب...

* * * *

(1)

صيف لاحق للثورة...

لا أذكر متى كان ذلك تحديدا ولكنّه كان يوما صيفيّا قائظا من أيّام الصّيف اللّاحق للثّورة. وقد كان فيه احتجاج ما - وها أن الذّاكرة اختلطت عليها يوميّات الاحتجاجات أيضا فلقد تكاثرت وتنوّعت واختلطت في تلك الأيّام وفتّق التّونسيّون مواهبهم في التّظاهر والصّراخ والاحتجاج حتّى تعبوا - في ذلك اليوم، وزّعت النّسخة الأولى من روايتي "علالة الزّيني" على عدد من الأصدقاء الذين تواجدوا في الاحتجاج .

أخذوا نسخهم ومرّوا ...

لا أرتو إلى الحديث عن هؤلاء الآن ولكنّه حديث في طريقي إلى صديقي عثمان...

قال صوت:

"أما زلت على يقظة بعد؟

ألم يختلط عليك الوهم بالحقيقة؟ يبدو أنّك تمزج المتخيّل بالواقع؟ إنّك تعبث..."

* * * *

قابلت عثمان الشّرقي هذا اليوم وسلّمته نسخته ممهورة بإهداء خاصّ :

"إلى عثمان الشّرقي ...

ذكرى أيّام العناء والتّعب ...

عسى أن يندمل الجرح وتورق الأحلام ويبتهج الوطن"

قرأ الإهداء بكلّ ابتهاج وارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة ثمّ سارع إلى الصّفحات الأولى وراح يقرأ متلذّذا...

فارقني وهو يردّد: "اللّيلة أكملها...يبدو أنّ هذه الرّواية تمثّل شهادة عظيمة على مرحلة ووسام فخر على صدري ..."

وأضاف:

"أهاتفك بمجرّد إكمال قراءتها وسأعبّر لك عن موقفي...

وماكتب عنها

و أروّجها..."

قلت: "...وأين ستنشر؟"

قال: "على الفيسبوك ..."

- وهل تفهم في الأدب والنّقد الأدبيّ يا عثمان؟

ردّ ضاحكا:

"وكيف لا أفهم؟

على صفحات الفيسبوك يمكنك أن تصبح ما تريد، العشرات يصبحون شعراء وكتّابا ومحلّلين في وقت وجيز...

مرّت أسابيع عديدة لم أقابل عثمان ونسيت وعده بالاتّصال حال إنهاء قراءة الرّواية حتّى عثرت عليه فجأة في المقهى القديم. كان سكرانا مترنّحا. بادرني وهو يكاد يسقط على الأرض:

- لم تنصفني روايتك...لم تضعني في المقام الذي أريد... تعمّدت إخفاء أشياء مهمّة عن حياتي...لم تذكر مقارعتي للنّظام السّابق ولم تذكر مساهمتي في الثّورة. الثّورة انطلقت من حنجرتي ...محمد البوعزيزي كان صديقي وأنا من أوائل الذين سارعوا إليه حين احترق و....و.....و.....

سايرته مثلما نساير كثيرين هذه الأيّام وهم يخرجون علينا مدّعين دورهم الكبير في الثّورة ومعاناتهم زمن بن علي. يختلقون الحكايات ويتقمّصون بطولات زائفة والويل لمن يفضحهم...

إنّها الفجوة التّاريخيّة التي أضاعت أحلام البلاد...

كان عثمان طوال سنوات يهذي غاضبا من النّظام السّابق ولكنّي لم أعرف له نشاطا علنيّا. كان يهذي ويجادل خارج مناطق التّغطية ساعات السّكر والثّمالة. ولعلّه لم يختلف في ذلك عن أغلب التونسيين الذين ظلّوا يكتمون ألمهم طوال سنوات عديدة خوفا من الجدران والجلّادين.

بعد الرّابع عشر من جانفي خرج عثمان إلى الشّارع...أذكره في موكب طرد علّالة الزّيني...أذكره جيّدا وهو يتقدّم ذلك المشهد ثمّ واصل إقباله على تحرّكات الشّارع لا يكاد يغيب عن مجلس أو لجنة أو وقفة احتجاجيّة...

صار أحد أولائك الذين يتقدّمون الصّفوف ويتدافعون بمناكبهم أمام المصوّرين التّلفزيّين. وجها مألوفا في الاحتجاجات التي تنقلها قناة الحوار التونسيّ. انخرط في لعبة الشّارع دون تردّد وصارت مهنته الرّسميّة "محتجّا دائما" يتظاهر مع هذا ويقف مع ذاك...يحلّ صباحا بالمدينة. يتّجه نحو ساحة الولاية مساهما في احتجاج اليوم ثم يمرّ بالمقاهي ومجالس السّياسيّين ويعود عند الغروب إلى قريته محتسيا، منتشيا بمجالسته لهذا الثّوريّ أو ذاك متذوّقا طعم جلسات لم يألفها، متأمّلا صوره في النّشرات الإخباريّة ثمّ يستسلم لهدهدة الفيسبوك حتّى النّوم...لا يخفي الثّراء وتبدّل الحال على عثمان، فلم يعد يبيت بالشّوارع والخرائب عندما لا يجد وسائل نقل تقلّه نحو قريته بل أصبح يكتري سيّارة بماله الخاص. هو يمرّ بفترة جميلة والأموال تتدفّق

من هنا وهناك...منحة جرحى الثورة ومنحة الحضائر ومنح الاحتجاج التي يدفعها بعضهم ...

مرّت أشهر وعثمان يخوض مع الخائضين ويندفع في شوارع الغاضبين ثمّ ظهر بوجه جديد لم أستسغه...أصبح من رجال عفيف...

يجادلني بعضهم:

ليس انتماء ولكنّها محطة أخرى من محطّات الارتزاق. لن تدوم هذه الأحزاب القائمة على عقد تشغيل...

* * * *

(2)

حدّث علّالة قال...

(...ربّما هي افتراءات لتشويه عثمان)

قال علّالة:

"هل تريد أن أحدّثك عن صاحبك وبطلك عثمان؟

هل تريد أن أحدّثك عن عثمان الذي جعلته رمزا؟

هل تريد أن أحدّثك عن عثمان، الذي يخطب الآن في الساحات ويمجّد عفيف ويلعق حذاءه ويسبّني ومعشر الأزلام؟"

ثم شرع يروي حكاية طويلة: ...أنا وعثمان تنحدر من قرية واحدة ودرسنا في نفس المدرسة الابتدائيّة التي كانت الوحيدة في تلك الرّبوع وشيّدها الأهالي بُعَيْدَ الاستقلال، وتحديدا أواخر السّتينات. جمعوا أحجارها وتبرّعوا بما لديهم واشتغلوا تطوّعا وكانت فرحتهم لا توصف بقبولها من طرف وزارة التّربية القوميّة وظلّوا عقودا يفخرون بها وبنتائجها المتميّزة....كان الجميع ينظر

إلى هذا الفضاء الشّامخ بإجلال وكانت الأجيال تجدّ وتكدّ من أجل النّجاح...يا حسرة على تلك الأجيال التي درست حافيا عارية جائعة. تلك الأجيال بنت تونس عكس هذه الأجيال التي نشأت في ظلّ الرّفاهيّة...في تلك المدرسة نشأنا وتعلّمنا. ولكنّا لم نكن صديقين، نظرا للمسافات البعيدة التي تفصل بين مسكنينا. كنّا نأتي المدرسة من كلّ حدب ونقطع أودية وحقولا موحشة ونسير مسافات طويلة في سبيل العلم والمعرفة...اخفق عثمان عنّي منذ نجاحي في"السّيزيام" والتحاقي بالدّراسة الثّانوية تركته راسبا ولم يلتحق بنا في الأعوام الموالية. لم أعرف إن درس في معهد مجاور أو رفت من الابتدائيّة. لا معلومات لديّ عن تلك الفترة...

ومرّت السّنوات حتّى وجدت نفسي معه في لقاء سرّي ذات مساء شتويّ من مساءات السّنوات الأولى من التّسعينات. الدّهر فجأة في بيت العمدة بشير رحمه الله وطيّب ثراه...

* * * *

قاطعناه بصوت واحد:

- وهل مات العمدة بشير؟

- رحمه الله...

- ومتى؟

- ربيع2011

- رحمه الله...

قال صاحبي:

- خسارة للذّاكرة...العمدة بشير أحد هؤلاء الذين يستطيعون سرد ما جرى لعقود طويلة بلا مساحيق...أعرف العمدة بشير جيّدا

ردّ علاّلة:

- العمدة بشير من "سكّة بورقيبة"...

علّق صاحبي:

- الصّدفة هي التي جعلتني أعرف العمدة بشير وأعرف سكينة، سكينة زميلة سابقة و صديقة عزيزة...

لم يحمرّ وجه علاّلة و لم يخجل لذكر عقيلته سكينة وعقّب:

- تعمل عنك انطباعات جيّدة...تعدّك من الصّادقين القلائل

(وضعت سطرا تحت صديقة عزيزة التي قالها صاحبي...قرّرت أن أسأله لاحقا عنها...أحسست أنّ بينهما أمرا...)

* * * *

كنّا في لقاء سرّي وخاصّ وعاجل وغير مرتّب سلفا...

...لم نأت بدافع الوليمة مثلما اعتاد ضيوف العمدة. فلقد كان يكثر من الولائم التي يدعو إليها المسؤولين والأعيان ويتفق ويبذر لأجل إنجاح المناسبات السّياسيّة وتحقيق مآربه...لم يكن هذه لتحقيق مصالح ذاتيّة فهو ثريّ ولكنّه كان يريد أن يحمل هؤلاء الضّيوف فكرة طيّبة عن القرية، وأن يصبح بينه وبينهم ماء وملح حتّى يساعدوه في تحقيق مطالب الأهالي الكثيرة، التي نادرا ما تجد القبول من السّلطة. فكلّ المطالب مؤجّلة والوعد يقرب دراستها، ظلّ مرتبطا بالحملات الانتخابيّة المتعاقبة. فما أن ينتهي موسم الانتخابات حتّى يعمّ الصّمت وتنسى.

لسنوات كان العمدة يشتكي للسّلطات من غياب النّور الكهربائي ويطالب بتعبيد الطّريق والإكثار من حضائر الشّغل وتوسيع قائمات المساعدات الاجتماعيّة وغير ذلك. لكنّ النّاس يتمنّعون بالرّغم أنّهم لم ينكرونه ولا يرون في العمدة غير وجه من وجوه السّلطة. يتقرّبون به عند الحاجة ويتقرّبون منه في خلواتهم السريّة ويسبّونه في سرّهم...

كان اجتماعا مغلقا وسرّيا. دعينا على عجل. أنا وعثمان والعمدة ورئيس مركز الحرس الوطني وبعض أعضاء الشّعب التّرابيّة المحلّيّة.

كنت حاضرا بصفتي الكاتب الشّخصيّ للعمدة. مازلت آنذاك أتسلّق الطّريق وأحلم بالوصول إلى مناصب هامّة، يقينا منّي بأنّ من تسلّموا المواقع لم يكونوا أفضل منّي وأنّ النّظام الجديد يحتاج إلى جيل جديد من المسؤولين والقياديّين. أمّا عثمان فلقد حضر بصفته يتقلّد خطّة "عميد الشّباب" في شعبتهم التّرابيّة التّجمّعيّة التي بعثت منذ أشهر بعد تقسيم شعبة قريتنا. هذه الخطّة التي كانت ذات وقع خاصّ في تلك الأزمنة البعيدة...

في هذه اللّيلة،عرفت أنّ هذا الفتى أيضا يطمح إلى مناصب السّياسة وأنّه يرغب في أن يتمّ اختياره عضوا بالجامعة المحلّيّة للحزب كخطوة نحو الأهمّ...كان ذلك الاجتماع سرّيا وعاجلا على إثر توصيات صادرة إلى وزارة الدّاخليّة والقواعد الحزبيّة باليقظة والاحتياط بعد رواج خبر محاولة اغتيال الرّئيس وإعلان وزير الدّاخليّة في ندوة صحفيّة العثور على أسلحة من بينها صاروخ "ستنغر" أعدّ لتنفيذ الاغتيال...

كانت مهمّتنا تلك اللّيلة أن نعدّ قائمة فوريّة للمشتبه بهم في معارضة النّظام وخصوصا منهم المنتمين إلى "حركة الاتّجاه الإسلامي" التي غيّرت إسمها بعد السّابع من نوفمبر إلى "حركة النّهضة" وأن نلتزم الحذر والانتباه للتّحرّكات المشبوهة...

بدا لنا أنّ عددا من شبّان قريتنا و طلبتها وموظّفيها قد غرّبوا عنّا ونحن نيام...بعضهم يحصل على مساعدات اجتماعيّة من منظّمة طلبة التّجمّع في بداية السّنة الدّراسيّة، ولمّا يتوارى في المدن البعيدة يصبح معارضا لا يشقّ له غبار، يتظاهر ويعتصم ويوزّع المناشير في الجامعات وبعضهم يسافر نحو وجهات مجهولة ويحضر اجتماعات مشبوهة...

أمدّنا رئيس المركز بقائمة طويلة تسلّمها منه العمدة بشير وهو بعض أصابعه ويزمجر...كنت أقرأ له الأسماء لأنّه لا يجيد القراءة والكتابة وكان يتمتم ويتألّم..."يا ناري...يا ناري...يا فضيحتي.. ماذا سأقول؟...أولاد عمّي يخونون سيادة الرّئيس وأنا نائم وأقدّم لهم المساعدات...أيخرج من بيتنا ومن بين آكلي مساعدات نظامنا وعربنا مخرّبون وعملاء يعبثون بسيادة تونس؟"

لم يكن العمدة بشير يتصنّع هذا الكلام. صعقته هذه المعلومات فراح يهذي صادقا في مشاعره. كان يتكلّم من أعماقه وبحرقة شديدة وظلّ أيّاما متوتّرا حتّى مرض مرضا شديدا. كان له فهمه الخاصّ للوطن وكان له ثالوثه المقدّس، الوطن والرّئيس والعروبة. ولكنّه كان يجاهر في خلواتنا بعكس هذا التّرتيب في بعض مفاصله فالوطن ثمّ الحزب والرّئيس...

كانت تلك جلسة البداية وانطلقنا في العمل كلّ من موقعه، وكان عثمان عنصرا نشيطا وذكيّا وكثير التّردّد على العمدة بشير في منزله دون أن يتفطّن إليه أحد...

ابتكر فاتح السّكر ليحصل على معلومات هامّة ويعرف حقائق الأمور. كان يعود من المدينة آخر العشيّة. ينزل على جلساء المقاهين، يشاكسهم ويثيرهم، يسبّ رئيس الجمهوريّة والعمدة ورئيس الشّعبة كي يستدرج ألسنتهم الصّامتة...كلّهم يكتمون غيظهم...يدوّنون محاسبة العمدة وكاتبه ويردّدون حكايات الفساد والاختلاس.

العمدة بشير اقتطع من الإعانات ...

الإعانات مضت إلى أهله وأصحابه...علّالة دلّس قائمات الإعانات الاجتماعيّة بأمر من العمدة بشير..."

رئيس الشّعبة أخفى في بيته مساعدات الفيضانات وباعها [illegible] في صفاقس هذه الأيّام..."

لم تكن الإشاعات تهدأ...ولم يكن لغضب هؤلاء من عد
...كلّما فتح عثمان أبواب الحديث إلّا تمتموا وتوعّدوا ثمّ تواعدوا
بالصّمت في النّهاية...يأخذ عثمان كلّ هذه الأخبار ويغربلها ويطير
بها إلى بيت العمدة بشير...

- هذه معلومات صادمة وخطيرة...أصحيح ما تقول يا علّالة؟

- هذه حقائق لا يعرفها إلاّ نفر قليل...

- وهل كان جلساء الدّكّان وأهل القرية إلى هذه الدّرجة من الغباء؟

- لم يكن هؤلاء يثقون في عثمان...

- ولماذا لم يزجّ بهم العمدة؟

- كان العمدة بشير طيبا ويستصغي ما يصله. وكان يعرف أن ما يقال هو مجرد لغو فهؤلاء البسطاء يتذمّرون ولكنّهم في النهاية يهرعون بأعداد وفيرة كلما دعوناهم...لم يكونوا ضدّ الرّئيس ولا ضد الحزب، كانوا فقط مع خبزهم وقوتهم...

- ولكنّهم لم يظلّوا على هذه الحال؟

- نعم لاذوا بالخرس لاحقا! لم يعد أحد يتجرّأ على مشافهة العمدة أو الحديث عنه في مكان عامّ...لقد كمّمت الأفواه واشتدّت الرّقابة وحجبت عن بعضهم المساعدات الاجتماعية وحرم أولادهم من الشّغل وزجّ بالكثير منهم في السّجن بتهمة الانتماء إلى حركة غير مرخّص فيها!

- هل كان العمدة بشير وراء هذا؟

- كان يتبرّأ ولكن لا أحد يصدّقه...

تكلّم صاحبي ساخرا:

لا يمكنكم أن تنكروا هذه الأفعال. هل كنتم ملائكة؟

تمتم علّالة:

لم نظلم أحدا...كنّا ندافع عن الوطن...الكثير من هؤلاء جرّوا
إلى هذا المصير...

ثم ضحك: "لقد خدمناهم بتلك الأفعال. هاهم الآن ينعمون
بأموال التعويضات..."

* * * *

أراه الآن بذاكرة صاحبي. أستجوبه وهو يتملّص من إجابات
كثيرة...

- أتعرف العمدة بشير وسكينة كلّ هذه المعرفة؟

أكاد أقول له:

- هل كنت أيضا من زبائنه؟

قال صاحبي مفتخرا:

- كانت سكينة زميلتي في الدّراسة الثّانويّة. درسنا أعواما
معا...

أجابه ضاحكا:

- ...ربّما كانت أكثر من زميلة أو صديقة عزيزة كما قلت
لهؤلاء...

ابتسم صاحبي: "الزّمن يا صديقي...بل كانت أكثر من زميلة
وأقلّ من صديقة..."

قلت ضاحكا:

- أكانت رفيقة؟

ابتسم وهو يعضّ أصابعه:

- بل أكثر...الزّمن الظّالم أهداها لهذا الرّديء...من يتوقّع أنّ
رفيقتنا سكينة ستكون من نصيب مسؤول حزبيّ؟ للحياة ألاعيب
غريبة تسيّرنا مثلما تريد...سكينة التي أوصد عليها علاّلة الأبواب
وجعل لها خدما وسوّاقا وسيّارة فخمة كانت رفيقتنا الغالية...لقد

ناضلت كثيرا في صفوف الحركة التلمذية ووزعت المناشير والكتب السرّية ورمت "البوب" بالحجارة، لقد خسرناها مثلما خسرنا غيرها من المناضلين والمثقفين الذين كان بإمكانهم السّير بالبلاد نحو الأمان المفقود لكنّ أكثر هؤلاء سرقتهم منّا التّسعينات ...بعضهم خاف القمع ورمى المنديل والبعض الآخر فهم اللّعبة القذرة فتعلّم كيف يكون انتهازيّا وكيف يجري وراء مصالحه الذّاتيّة والبعض الآخر أغواه خطاب النّظام وخدّره. فمزّق مناشيرنا وكرّاساتنا وأحرقها وانساق وراءه وتقرّب منه وصار من أعمدته...

- وماذا عن العمدة بشير؟ ألم يكن يعلم أنّ ابنته تعادي النّظام وتمارس ما كان يسمّى في الأوساط الرّسميّة بالتّشويش والشّغب؟

- كان العمدة بشير يزورنا في المعهد، يتهادى في جبّته البيضاء وشاشيّته الحمراء، يتشبّه ببورقيبة في لباسه بل لعلّ شخصيّته تتلبّس به في كلّ مكان فهو من المتأثّرين به ومن المتبارين في إبراز الولاء له...

يبحث عن سكينة في القاعات والسّاحات، ومن هذا الذي كان يقدر على منعه وردّه آنذاك؟ فهو واحد من قلّة معروفة وذات نفوذ بمستمدّه من مهنته ومن صفة مناضل. لم يكن بوّاب أو حاجب...الحقّ لا أعرف، إن كان جديرا بصفة المناضل التي انتحلها بعضهم قديما وأعاد الآخرون انتحالها زمن الثّورة...يقال إنّه كان مقاوما وأصيب في معركة الجلاء عن بنزرت...قد يكون ذلك حقيقيّا أو مزيّفا ولكنّه مسجّل في أوراقه...كان يدخل المعهد كداخل إلى بيته...يتفقّد سكينة ويسلّمها بعض ما يقدّمه لها وبعض ما جاءها به من الرّيف. فلقد كنّا نقيم بالمبيت ولا نعود إلى ديارنا إلاّ بعد أسبوع أو أسبوعين...والدها حزبي ولكنّها كانت تشارك معنا في الاحتجاجات والإضرابات رغم علمها أنّ وصول المعلومة إليه سيكلّفها غاليا...أقول هنا حقيقة

أسهرا منها البعض لمّا قيلت في وسائل الإعلام...الكثير من أبناء الجهتين و الأمنيّين كانوا يشاركون في التّحرّكات والاحتجاجات عفويّة عن أوليائهم...لم يكن العمدة بشير يعلم شيئا عن تحرّكاتها بعدا وكان يوصيها بعدم المشاركة في الإضرابات والمسيرات ويسقيها حبّ بورقيبة سقيا و لكنّها لم تكن تأبه بما يقول...

* * * *

واصل علالة شهادته:

كان العمدة بشير ينوي انتدابه كاتبا له خلفا لي. فمنذ غادرت المهنة ظلّ بلا كاتب يخبط خبط عشواء...اقترحه مرّات عديدة ولكنّهم لم يقبلوا به لتواضع مستواه العلمي.

في تلك الأيّام كان يواظب على زيارتي ويختلف إليّ خلسة في مكتبي الحزبيّ، يحمل إليّ آخر مستجدّات القرية وتحرّكات أهلها وخصوصا شبّانها المتنطّعين والملتحين وأرسله لمتابعة بعض الأشخاص في المدينة وكنت أحثّ الأخ الكاتب العام للجنة التّنسيق على تسهيل انتدابه والتّدخّل لدى السّيّد الوالي حتّى يأذن بهذا الفرار ولكن"تجري الرّياح بما لا تشتهي السّفن"...

ضرب علالة كفّا بكفّ:

- انقلب عليّ ...

- مثلما قال المتنبّي:

"لا تشتر العبد إلاّ والعصا معه..."

- بل فليكن الأمر مثلما قال الشّاعر عن غلامه...

- ...هههه...نعم علّمته الحياة...أذاقته أجود الأطعمة والخمور وأجلسه في مطاعم ومقاه لم يكن يحلم بالتّسوّل أمام أبوابها وليس دخولها ولكنّه خذلني...في بيت العمدة أمكن له خلال زياراته المتالية، أن يشاهد سكينة ويتبادل معها أطراف الحديث.

فأخذت عقله وأغرم بها وصار يهذي بها. أمّا هي فكانت تعتبرا
أحد عمّال والدها العرضيّين وأحد وشاته وكانت تسخر منه...
أصبح عثمان عاشقا ولهانا، حالما بمصاهرة العمدة. لكنّ غير
خطوبتها وموافقة العمدة صعقه...هاج وماج!

تمرّد عليّ وعلى العمدة وتوقّف عن أداء خدماته. بلغ العمدة
بشير خبر ما يحيكه عثمان وتحرّشه بابنته فطرده شرّ طردة...يحاول
عثمان لنفسه عن أرض أخرى. فكّر في الانتقام و أعلنها حربا
طويلة بيننا. فلم تكن تصلني منه إلّا آيات الحقد والدّناءة والغدر
...كنت أسمع حكاياته وأعرف محاولاته لتهديمي من خلال ما
كان يبعثه من رسائل إلى السّلطات قصد عزلي و لكنّه فشل فشلا
ذريعا...

* * * *

(3)

عثمان . كوم

(شتاء 2011)

التحق عثمان بعالم "الفيسبوك" وصارت مجالسه لا تغرّد
عنها أخبار ما نشره وما سينشره والمناقرات الكثيرة التي يخوضها
وكنت أنصت وأتمنّى أن يصبح بمقدوري الاطّلاع على هذا
العالم...لم أكن أملك هاتفا متطوّرا ولم تكن قريتنا مزوّدة بشبكة
الإنترنت التي بدأت تتسلّل إلينا سلسة منذ فترة ليست بالهيّنة
...لم يكن عثمان الوحيد الذي يحدّثني عن بطولاته في هذا
العالم الافتراضيّ الذي يقول الدّارسون إنّه ساهم في الإطاحة بنظام
علي وأقضّ مضجعه...فيسبوك هذا هو الذي أسقط حكم
الإعلام وهتكها. لم يعد للإعلام قدرة على أن يخفي أو يحجب

أم تعد الجرائد والتّلفزيونات مصدرا للخبر فهو يصل النّاس قبل
الوصول إلى مكاتب المحرّرين وأقسام الأخبار...أصبح عثمان من
الذين لا يفارق الفيسبوك حديثهم. يتحدّث دوما عما اطّلع عليه
من أسرار وما خاضه من مغامرات وما أعلنه من مواقف وما يجده
من أصداء كبيرة تعيد له اعتباره.

* * * *

حكاية السّمراء...

البنت السّمراء ذات الأصول الإفريقيّة، سليلة الزّعيم نلسن
مانديلا مازالت رسائلها تتدفّق باللّغة الإنجليزيّة...أوشك أن أقول
إنّها تطاردني مطاردة يوميّة.

أحبّك أيّها الزّعيم...

أحبّك أيّها الرّجل الصّادق...

أحبّك أيّها المناضل التّاريخيّ...

منذ رأيت صورتك عرفتك وأحسست أنّك رجل عظيم...
ملامحك ترسمك، ترسم نضالاتك...تسجّلك بحروف ذهبيّة في
تاريخ بلادك. أفكّر في استقبالك وتكريمك في بلدتي فأنا عضوة
في جمعيّة شبابيّة كبيرة تهتمّ بحقوق الإنسان وبالمناضلين من
أجل الحرّيّة مثلك...

هكذا حدّثني عثمان يوما وهو يستعرض بطولاته في الفضاء
الافتراضي وما أصبح يحظى به من مكانة تؤهّله لأن يكون صانع
أحداث في البلاد ويشعل الشّارع غضبا في دقائق...

قلت: "يا عثمان، لا تفوّت الفرصة فهذا التّكريم ثمين وقد
يعلّق التّاريخ..."

أجاب: "التّاريخ لم يعد غايةً. نحن في أعماقه ولم يعد لأحد أن يمحونا منه...أنا لست في حاجة إلى تكريم ولكنّي أفكّر في السّفر إليها شخصيًا..."

قلت: " ستسافر عاشقا؟"

ردّ وهو يشعر بالانتصار:

"الحقيقة ارتحت لها وعشقتها و بادلتني العشق...."

أردت أن أمازحه وأنا أخيفه و أستبطن السّخرية من أمره :

"خطرت لي فكرة طارئة!...ألم تفكّر كيف اختارتك هذه الفتاة من دون غيرك وكيف تعرف عنك معلومات كثيرة؟ من أدراها بأنّك مناضل ورجل احتجاجات؟! من أخبرها وحدّثها عن سيرتك هذه وأنت لا تتحدّث عنك صحف ولا إذاعات ولا قنوات؟

هل تكون شاهدت صورتك وأنت تقف وسط المسيرات والاحتجاجات؟"

فكّر عثمان قليلا ثمّ قال: "الحقيقة لا أعرف! لعلّها استنتجت ذلك من كتاباتي على صفحتي ..."

قلت: "أولا تكون ....!"

قال: "تكون ماذا؟"

قلت بصرامة مفتعلة:

"تكون من جواسيس الموساد! عيونهم في كلّ مكان وهم يعملون على تجنيد النّشطين والإطاحة بهم؟؟ قد تكون أعجبتهم وقعت عليك فأرادوا تجنيدك ..."

ضحك عثمان ملء شدقيه:

"...أو أصبح عميل موساد؟"

- ربّما ...

- وماذا سيجنون منّي؟

- خبرتك الطّويلة تصلح لهم...قد يفرضون تعيينك في منصب آمر...

واصل عثمان ضحكه...

قلت: "لعلّ الموساد ينوي تصفيتك."

ردّ: "...وهذا ممكن أيضا!"

قلت: "فهم يعرفون عداءك لهم و يدركون أنّك من أشرس المعادين لهم..."

قال عثمان بروح انتصاريّة: "لن يمرّوا..."

أضحكني هذا التّصريح...ذكّرني بما يقول بعضهم بحماس في هذه الفترات الحرجة من مسيرة البلاد وهم يتداولون هذا الشّعار...

حدّثني صديق بعد أيّام أنّ عثمان نشر ليلة هذا المزاح خبرا هادا تداوله نشطاء الفيسبوك معلّقين عليه ساندين ومستعدّين للوقوف إلى جانبه.

"أنا عثمان الشّرقيّ أعلن للرّأي العامّ تعرضي لتهديدات بالتّصفية من طرف الموساد وأحمّل الحكومة التّونسيّة كامل المسؤوليّة لما قد يحدث لي"

(قبل بعد مدّة، إنّ عثمان أعاد نشر النّصّ وقد استبدل تعبير من طرف الموساد بأطراف مجهولة متحدّثا عن واقعة أخرى حدثت له أمام مركز الولاية)

* * * *

لم أكن أعرف حكاية سمراوات الفيسبوك...كنت أعتقد أنّ عثمان وحده من تصله هذه الرّسائل الغراميّة وجرى لي ما جرى لأصحب وكدت أصدّق ما زعمت...قلت لعلّ ما ذهبت إليه صحيح

...لعلّ هذه السّمراء تتبع الموساد فعلا. فقد قرأت عن توظيف الموساد للعالم الافتراضي ...

سألت أحد "الفيسبوكيّين" فأجابني ضاحكا بأنّ الأمر عاد وكلّ المشتركين تصلهم هذه الأشياء الغريبة...رسائل وفيديوهات جنسيّة وصور فاضحة ودعوات تكاد تكون بنسخة واحدة...

ثمّ تطرّقنا إلى واقعة عثمان فقال صديقي: "لقد قرأت ما كتبت اعتقدته سكرانا..." واستمرّ يحدّثني عن فضائح عثمان وكتاباته السّخيفة في الفيسبوك متذمّرا منه ومطنبا في لومي لأنّي جعلته شخصيّة محترمة في رواية علاّلة الزّيني...

* * * *

(4)

منشورات عثمان على صفحة سكينة

قال صاحبي: "هل جاءك خبر ما يفعله عثمان بسكينة بنت العمدة؟"

قلت: "وماذا له أن يفعل الآن؟ لقد انتهت الحكاية منذ أعوام طويلة وغادرها يجرّ أذيال الخيبة؟"

ضحك صاحبي :

"عثمان يقود ثورة ثانية ..."

قلت : "وهل هو من أنصار الدّعوة إلى ثورة ثانية والتّبشير بها بحثا عن غنائم ثورة جديدة؟"

قال: "...نترك شأن السّياسة إلى حين..."

قلت: "فليكن!"

قال: "نشر عثمان رسالة على جدار سكينة!"

قلت: "جدار سكينة! هل بنت منزلا لوحدها أم أنّ بناية زوجها مآله آلت إليها؟"

ضحك صاحبي ضحكا غزيرا:

"إنّك تغرق في الأميّة ! لكلّ مشترك في الفيسبوك جدار."

قلت: "كيف يحصل عليه؟ هديّة أم قرض أم شرط جديد للدّخول إلى هذا العالم الافتراضي؟"

قال: "هذا لا يعقل! إنّك تخجلني بهذه الأميّة الإلكترونيّة ..."

قلت: "إنّ ملايين التّونسيّين المقهورين لا يعرفون هذا العالم ولا ينتسبون إليه...إنّنا من المحرومين من هذه النّعمة...نحن نجري مكالماتنا الهاتفيّة بعسر فما بالك بالإنترنت؟"

قال صاحبي: "لن يتأخّروا عنكم...سيقع مدكم بالإنترنت...لن يطول هذا الحرمان..."

انتبهت أكثر إلى الفجوة بين فهمي والحقيقة وسألت:

"وما حكاية عثمان وجدار سكينة بنت العمدة؟"

قال: "نشر عثمان رسالة خطيرة على هذا الجدار أثارت الكثير من السّخط والسّخرية ..."

Facebook

عثمان الشرقي a publié dans le journal de سكينة بنت العمدة

يشير

رسالة هامة جدا ...

حبيبتي الغالية سكينة:

ارجو أن تأخذي هذا الكلام ماخذ الجد...

إني أعلن الآن ثورة ثانية...لن أتوقف...بعد أن ساهمت في الثّورة التي أدت الى رحيل الاستبداد والإطاحة بالحكّام والفاسدين...

وبعد أن كان زوجك علّالة من أهمّ الذين أطحنا بهم...أعلمك الآن أني سأطيح به من قلبك وحياتك...فاستعدّي لهذا اليوم العظيم الذي أراه قريبا...عمّا قريب أعيدك إلى قلبي وأحرّرك من قيده...عمّا قريب أراك في غرفتي وعلى سريري...حبيبك الذي لا ينساك النّائر علمان الشّرقيّ

120j'aime 10 partages 20 commentaires

Commentaires

Zizou :

تفوه...ملّا أشكال!

وردة الماء:

vive l'amour

القائد:

إنّها الثّورة يا عثمان...

فلا تتردّد...للمستعد من الفاسدين كلّ شيء...حتّى حبيباتنا اللّواتي افتكّوهنّ غصبا...

عمّار الكتبي:

اللّعنة عليك يا قائد! قائد ماذا!

القائد:

أنا رجل ثورة ولا يجب أن تتحدّث معي بهذه اللّغة!

عمّار الكتبي:

الحمد لله افتكّوا الثّورة من أمثالك! وإلّا لحسرتم فياسرة...

القائد :

لا تتطاول يا عمّار ...يا زلم...نحن أسيادك.

وردة الماء :

براڤو عثمان...تريد ثورة حمّ

وردة الماء...أساندك

وردة الماء:

وردة أنتظرك على الخاصّ لنعلنها حالا...

عمّار الكتبي :

باش ثورة يتكلّم عنها هؤلاء...انتهوا إنكم نسخ دكتاتوريّة ...

القوّال:

عمّار الكتبي أنت من الأزلام...

عالم الغربة:

أهذه رحولة يا عثمان؟ هل تبيح لكم الثّورة اختطاف نساء الرّجال؟

ارحموهم من هذه الخطابات.

القائد :

ويلدهم من الأزلام ...

* * * *

سألت: "وبماذا ردّت سكينة ؟"

قال صاحبي : "لم تنبس بكلمة واحدة ..."

رحت أفكّر...وماذا سيفعل؟ هل سيعتصم أم سيعلن إضراب عن الطّعام؟ أيّة بداءة هذه؟ وماذا سيفعل حين يخرج له ابنها فراس فيهم الجنّة؟ ألا يمكن أن يجرّه على الأرض؟

إنّه نوع من التّهوّر الذي وقع فيه البعض، فراح يتمنّى وينقّد.. أيا حان الوقت كي نعود إلى الجادّة ونكفّ عن الفوضى؟

* * * *

مرحبا بكم على الفيسبوك

أخيرا التحقت بالعالم...صار الفيسبوك متاحا في قريتنا غمرتني فرحة كبيرة...لقد توفّرت الفرصة الآن للاطّلاع على ما يكتب الأصدقاء والانخراط في المعارك الكثيرة التي يحدّثوني عنها...القرصة مواتية للعب دور في هذا الجدل وإيصال الصّوت ...وكيف يصل الصّوت؟ أليس هذا السّؤال مهمّا؟...ألسنا دائما نشتكي من عدم وصول أصواتها إلى المسؤولين؟ وهل مازالت مشكلة عدم وصول الصّوت وبلوغه قائمة بعد كلّ هذا الضّجيج وكلّ هذه الأصوات العالية التي ترتفع في الشّوارع والإذاعات والفضائيات دون قيد أو رقيب...؟

إنّ هذا لمن الغريب حقّا...لعلّ أصواتنا وصلت وهم تجاهلوها! ولعلّ آذانهم أصبحت صمّاء عن كلّ شيء إلّا عن هذا الصّوت الجديد سريع الانتشار...صوت الفيسبوك!

كان عثمان من أوائل الأشخاص الذين وجّهت لهم دعوة صداقة رغم أنّ علاقتي به فترت ولقاءاتنا ندرت. ولكنّ الأسابيع مرّت و هو لم يقبل دعوتي...

فوجئت بعد أسابيع بتنبيه:

ضمّني عثمان إلى قائمته...أرسلت له رسالة احتجاج على بطء الإجابة فتعلّل بأنّه لم يفتح صفحته منذ مدّة طويلة...

لم أجد شيئا في صفحته يستحقّ الاهتمام، مهاترات وصور متعدّدة له تصوّر زعامته وبطولته وأقوال منقولة وتعاليق سمجة... أغرقني أيّاما بمنشورات سياسيّة تمجد عفيف وتصور اجتماعاته وندواته، يطلب منّي توزيعها على الأصحاب والأحباب لكنّي لم أفعل، شماتة ونكاية فيه...

لم يكن عثمان يعلّق على كتاباتي أو يضع تحتها علامة إعجاب...قال لي إنّه يقرأ ويمرّ في صمت وقد اعتاد أن لا يضع هذه العلامات هروبا من الإدمان، وقد صرت أعرف أنّ ذلك عدعة. أمثاله يلوّحون بعلاماتهم وتعاليقهم للحسناوات ولا وقت لديهم لأمثالي...

بعد مدة حظرني عثمان وغابت عني صفحته الفيسبوكيّة...

دبّ الصحراء

تأخذني رغبة جارفة في الكتابة عن دبّ الصحراء تعيدني إلى ذاكرة الطفولة والأيام البعيدة...أفتح ذاكرة السنوات الأولى في هذه المدينة، أيام خالي الحسناوي رحمه الله وأسكنه فراديس جنانه...هي أيامي الأولى في هذه المدينة تلميذا صغيرا بدأ من الابتدائي بعد نجاح باهر في"السيزيام"حينما كان للابتدائي معنى ولهذه الشهادة وقع...كان عالمنا في الريف شاسعا ومتسعا لا يحدّه إلا الظلام...لم نكن نعرف هذه البيوت إلا أثناء القيلولة أو النوم...كلّ حياتنا تمضي خارج البيت في عبث لا ينتهي.

عند خالي الحسناوي، ينتهي العالم الخارجي بعيد المغرب ماعدا في أيام شهر رمضان المعظم. توصد الأبواب والنوافذ ويركن كل فرد إلى ناحية من البيت الشاسع ولم يكن يستثنى من هذا النظام الصارم وربما لم يكن يستثني نفسه فهو أيضا يركن على أوراقه وكتبه وكرّاساته...عند السادسة نعود جميعا من المدرسة هو يشدّد على ضرورة عودة كلّ واحد منّا بعد إتمامه واجباته المدرسية ولكننا نعود دوما إثر الحصة الختامية ونقضي الساعات الفارغة في المرح في ساحة المعهد والمناطق المجاورة، بعيدين عنه، خشية مروره الفجئي وكنّا نتفق على صياغة الأكاذيب حتى لا يفتضح أمرنا إذا ساورته بعض الشكوك...

ابنته الكبرى التي تسبقنا بأعوام تنخرط معنا أيضا في هذه اللعبة...توهمه أنها تحضر حصصا إضافية عند بعض الأساتذة في أقسام أخرى فيثني عليها ويشيد بها ويتمنّى لها التوفيق ويؤكد على أهميّة النجاح بتميّز. فهو طريق إلى تحقيق حلمه، وربما معلّمة بجانبه في سنواته الأخيرة. يريد منها أن تتسلّم منه

الدروس...أتذكر بداية هذه الرّحلة مع خالي الحسناوي...لم يغب عني إلى الآن ذلك الصّباح لمّا أودعني والدي عنده بلا مدد وأوصاه بأن يراقبني ويشدّد معي ويضربني إن لزم الأمر ثم انصرف، مطمئنّا إلى القرية...هو بدوره سيهيئ نفسه للالتحاق بعاصمة الجنوب بعد أيّام حيث يعمل كعادته موسميا في معاصر الزيتون...لم يكن يشعر بأدنى حرج وهو يتركني فخالي حسناوي رجل طيب لا يردّ لنا ولأهل القرية طلبا...يلتحقون به كلما ضاقت بهم الأحوال واحتاجوا سلفة ويلجؤون إليه إذا اضطرّوا للمبيت في القرية بسبب عدم توفّر وسائل النقل أو التزامات في المستشفى أو إذا احتاجوا لكتابة رسالة أو شكوى...لم يكن والدي يرى ضررا. فخالي هو الذي اقترح الأمر بنفسه ولم يكن يبخل عليّ بشيء، طوال إقامتي هناك ومرّت أيّامي سعيدة حتّى كانت ليلة الفصل بطاقات الأعداد...باسم ابن خالي لم يحصل على المعدّل المطلوب. كانت ليلة كئيبة سمعت فيها الرّعد والزّئير. صعد الدّم إلى رأسي. أصبحت مريضا وجاء والدي على جناح السرعة. أخذني إلى المستشفى ثم عاد بي إلى القرية حيث قضيت أيّاما طريح الفراش...قال الطبيب: "مجرّد نزلة برد قويّة وسيشفى منها بعد أيام..." وأغلق الملفّ...

لم أصرّح بأمر تلك الليلة لأحد بل لعلّني نسيتها في خضم الأحداث ولم تذكّرني بها إلاّ الكتابة...لقد مرّت مع أشياء كثيرة...إنها نالت باسم ضربا مبرحا وسمع كلاما شنيعا.لم يرحمه خالي حسناوي ولا زوجته خالتي حميدة أما أنا فبتّ خائفا. لم أدر لأن بطاقة أعدادي قد تكون بلغت الوالدّ وعقابه سيكون أشدّ وتأديبي سيكون أشدّ نعاسة.قضيت ليلة أرق زاده صوت خالتي حميدة ألما ومرارة. تسلّل إليّ وهي تزمجر في وجه خالي: "ولد أخيك هو السبب...ولد أختك الهامل أفسد ولدي...يكمل معانا

هالعام ويزّي...ما عادش انّجم...ياسر عليّ...يدخل العبيت... يدخل العبيت"

كان الخال يسفّه هذا الكلام ولم يرضخ لها ولكنني أحسست بألم يعتصرني...إنها صدمة. أخالتي حميدة تقول هذا وهي التي لم تسئ معاملتي إطلاقا ولم تتأفف أمامي يوما؟ لعله كابوس...لا أبدا...هي قدرة بعضهم على إتيان عكس ما يضمرون...كانت تقدّم لي ما تقدّم لأولادها وتهتمّ بي مثلهم. لم أشعر بفرق ما ولكنّها تضمر كلّ هذا الحقد. لست أدري إن كان ما تقوم به مجرّد رضوخ وتطبيق لتعليمات الخال أم كان فعلا على مضض، والحقيقة أني أخفيت هذا الحديث ولم أقله لأحد وهي أيضا لا تعتقد أني سمعت ما قالت...

كنا نتقاطر إلى البيت عند السادسة فرادى أو مجموعة كاملة، تدخل بضجيجها وهرجها. يصل خالي بعدنا بقليل بعد أن يطمئن على المدرسة التي يديرها...لا يغادرها قبل مضي نصف ساعة من نهاية الحصّة المسائيّة. يظل قابعا هناك تجنّبا لما قد يحدث في غيابه من اضطرار بعض الأولياء للاتصال به بحثا عن أبنائهم المتأخّرين في الوصول أو للشكوى من شغب الطريق واعتداءات التلاميذ المشاغبين على زملائهم...بعد جلسة العشاء، يمضي كلّ منا إلى ناحيته ليراجع دروسه ومن أراد العودة لمتابعة جهاز التلفاز أو الالتحاق بفراش النوم عليه المثول أمام الخال. كان يحرص على أن نستعرض كلّ ما حفظنا...لم يكن يؤمن بالسؤال والجواب أو الفهم. كان لا يطمئنّ إلا إلى الحفظ الحرفي للقواعد والملخّصات. فهو مدرّس تقليديّ يؤمن بأهمية التّلقين ولا يعترف بمناهج التّدريس الجديدة.

تتداعى الذاكرة أكثر إلى الوراء ولا تتقدّم. وأنا أقترب من الحديث عن دب الصحراء.

تعود صورة خالي حسناوي وهو يزورنا في بيتنا الريفي مرتديا جبّه ذات اللون الرمادي...كنا نختفي إذا رأيناه لأنّه معلّم. ونخشى أن يبحث عنا ويزعجنا بأسئلته التي لا نريدها عن الدراسة. كان يكثر من طرح أسئلة يختبرنا بها...في النحو والإعراب والتصريف والرياضيات وكان كثيرا ما كشف لأهلنا عن ضعفنا الفادح. لم تمح هذه الصورة إلا يوم النجاح في السيزيام إذ أقام والدي وليمة وجاءنا الخال وأسرته للتهنئة والمباركة. يومها لم يكن شبحا مخيفا بل قبّلني وشكرني ورأيت على وجهه علامات فرح فلم أفكّر في الاختفاء وأحسست بالارتياح وزادتني الورقة المالية التي قدّمها لي غبطة وسرورا...هي المرة الأولى التي أمسك فيها ورقة نقدية وأضمها في جيبي لساعات ولكن أمي افتكّتها مني وصرّتها في طرف عباءتها لتنهي أحلاما راودتني طوال اليوم...كنت أحلم بالذهاب إلى الزردة بعد أسابيع وإنفاقها في الملذات...ما أبسط ملذات ذلك الزمن...كؤوس عصير تباع وسط السوق...فطائر وزلابية ومخارق...حذاء رياضي وكرة بلاستيكية...كانت تراودني أيضا رغبة في إعطاء قطعة نقدية لأحد المتسولين ممن يملؤون السوق صراخا "يا كريم...متاع الله"

هي بعض أحلام طفولة خاوية مرّت بوتيرة واحدة...احتجزت أمي الورقة ولم تسلّمها لي إلا عند إطلالة الخريف والميدعات والكتب والكراسات...في ذلك الصباح كنت محشورا مع الوالد في مؤخرة شاحنة 404 مملوءة تلاميذا وأولياء...يعبّئنا سائقها كالأغنام، ويتسلّل بنا عبر طرقات ملتوية حتى لا يقبض عليه الحرس...أحمل حقيبة كبيرة فيها غطاء صوفي نسجته لي أمي صيفا وبعض توابل محلّية الصنع و"بسيسة" أرسلتها هدية إلى خالي حميدة...

* * * *

بعد سنوات قليلة أي في بداية السنة الرابعة(الأولى [illegible] حاليا) ساورني إحساس بأنّ السّكن عند خالي أمر خانق بالنسبة [illegible] تبقى من طفولتي. لم أحتمل كلّ هذا الحرمان من الحرية والأتراب والمرح. أعلنت لأبي أني لن أعود...ثار أبي لأول مرة أعهدها. صفعني. صرخ في وجهي لكنّي صممت على العصيان. بدأت أجمع أدباشي وألوّح بالسفر والهروب نحو مدينة أخرى قصد العمل...قبل أبي على مضض أن أتقاسم سكنا مع بعض التلاميذ على سبيل الكراء، بعدما امتنع مبيت المعهد عن قبولي.

في المنزل الجديد زملاء قادمون من قرى مختلفة...استعدت اللّيل الذي حرمني منه خالي و اكتسبت حرّية أن أضجّ أو أصرخ أو أسهر حتى مطلع الفجر...أصبح متاحا لي أن ألقي بالمحفظة عرض الحائط وأن لا أعدّ الدروس وأن أتسكّع في شوارع المدينة مثلما أريد. هي الحرّيّة تدبّ في العروق. هجرت خالي. اعتذرت عن زيارته بحجّة أن لا وقت لي وأنّ المشاغل الدّراسيّة كثيرة ولكني مازلت أتخفّى عنه في الشوارع. فمازال والدي يتخذه وكيلا لدى إدارة المعهد و يوصيه بي خيرا...في هذا البيت كان دبّ الصحراء يشاركني السّكن...كانت أشهرا فوضوية ولذيذة لا تنساها الذاكرة...

* * * *

كان ضخم الجثة وطويل القامة ومنتفخ الأوداج وأكولا بشعا ومثيرا للسّخرية...يجري خلفنا ويهدّدنا ونحن نطلق عليه في تلك الأيام تسمية "دب الصحراء". كنية انتشرت ولازمت تنشيط الجنرال بشوارزكوف الأمريكي قائد "عاصفة الصحراء" في شتاء حرب الخليج بين العراق وقوات التّحالف الثلاثيني...كان أكبرنا في

السن وكان وضعه مختلفا عنّا فهو ثريّ وابن فلاح كبير، من أولئك الذين لا يستطيعون كتابة حرف واحد ولديهم أموال طائلة ويأملون أن ينجبوا أبناء متفوقين في الدراسة حتى يأخذوا بثأرهم من الأمية والعلم...كان يصل يوم الإثنين محمّلا بحقيبة كبيرة من المأكولات: مواد غذائية طازجة ملأتها له والدته، بيض مسلوق، لوز مقلي، شطائر وأشياء أخرى، يغوص فيها بنهم شديد...

كان كريما معنا وكان لنا نصيب وافر من أكله وماله. فهو لا يبخل في تمتيعنا بشيء من بذخ الحياة الذي يعيشه.و لم يكن له اهتمام بالدرس ولا يأخذه الخوف من أحد في هذا المعهد.هو الوحيد الذي لا يعني له الرفت شيئا...ثروة والده تجعله في غنى عن الوظيفة وعن الشهائد العلمية وتكفيه ليعيش بعيدا عن الخصاصة.

ربما دبّ الصحراء فهو الذي ينفق ويدفع وهو المستعدّ ليردّ علينا كل معتد...تعلّمنا معه التّسكّع في اللّيل. أدمنّا سهرات المقاهي إلى ساعة متأخرة من الليل وعشقنا تلك المقاهي التي يدوي فيها صوت أم كلثوم عند المساء. تلج المقاهي. ندخّن ونشرب الكابوسان ونجالس السمّار الهاربين من قلق البيوت وضيقها ونشاكس السكارى المتعثّرين بين الأنهج ونطلّ على عوالم الحياة التي لم نكن نعرفها...نتعلّم الصالح والطالح ونقرأ الصفحات الأولى من عالم الليل ونقتضّ ظلام المدن الصغيرة...

* * * *

في ليلة باردة اقترب منّا سي عياد - أستاذنا الذي نحبه - أعطانا أوراقا وطلب منّا توزيعها خلسة في كل مكان وأوصانا بأن نذيع في التلاميذ أننا سنضرب من الغد احتجاجا...شعرنا بفخر لدن سي عياد يمنحنا ثقته ويجب أن نكون في المستوى

المطلوب. أغلقنا الأبواب والنوافذ ملياً وبتنا نخط الشعارات على الأوراق البيضاء ونتهجّم على دولة المتاريس والمدافع والقنابل المسيلة للدموع وعلى قرّاء الأخبار الذين سيصفون ما سنقوم بكونه أحداث شغب وبكوننا عناصر مشاغبة ومأجورة وعلى المدير والقيم العام ومن يواليهما من الأساتذة والقيّمين الذين سيصطفّون لمراقبة الوجوه وتسجيلها و الإبلاغ عنها...

نهضنا باكرا. لأوّل مرة نتجه إلى المعهد ودبّ الصحراء يتقدّمنا. كان دوما يتبعنا من الخلف. اليوم فقط كان يقودنا هادرا. هو مستعد لمصارعة الجميع: المدير والقيم العام والحراس ورجال "البوب" الذين قيل لنا إنهم لا يرحمون...سرنا وفينا بحماس طفوليّ واندفاع شديد. ننتظر لحظة الخروج الكبير بعد تحية العلم...سنخرج جميعا ونلتحم بتلاميذ بقيّة المعاهد في مسيرة كبرى ستجوب المدينة وستصرخ ضدّ النظام...

* * * *

أوقف دبّ الصّحراء ظهرا مع عدد من التلاميذ إثر اشتباكات مع رجال الأمن في الشّارع المقابل للمعهد وأذيع أنّ التلاميذ ألقوا زجاجات حارقة على رجال الأمن وأنّ عناصر مريبة اقتحمت المعهد وخرّبته وأعلن عن إيقاف الدّروس حتى إشعار آخر...

جاء والده الحاج علي مزمجرا ولاعنا الجميع ويبدو أنه دفع يومها فأفرج عن دب الصحراء وظل بقيّة الزّملاء هناك. قرأت بعد أشهر أنّهم حكموا عليهم بعدم سماع الدعوى، ولكن لا أعتقد أنهم ظهر لاحقا. ربما طالت إقامة البعض هناك وربما غادروا إثر قراهم والتحموا بالدنيا...بعد أيّام قليلة من الإضراب تمّ إيقاف

دبّ الصحراء رفتا نهائيّا لإساءته للأمن العام وتخريب المعهد. علّقت الإدارة ذلك في إعلان على السّبّورة الحائطيّة.

قاد دبّ الصحراء المدينة مظلوما ومغضوبا عليه وعاد إليها بين أعوام يذرعها بشاحنته "ديماكس" ويرفل في مجالسها. رجل أعمال شاب يحاول الاستفادة من الخبرة التي اكتسبها في الأعوام التي قضاها خارج البلاد...

وفيقة بنت عياد تروي حكايتها

"شبّاك وفيقة في الغربة
نشوان يطلّ على السّاحة..."

بدر شاكر السيّاب

لسنوات ظلّ والدي عيّاد يردّد كلمات بدر شاكر السيّاب في سرّه وعلنه. اختار إسمي من تلك القصيدة، اتبهر أساتذتي في اللغة العربيّة بهذا الإسم واحتفوا به. كثيرا ما كان مدخل بعضهم للخروج عن الدرس والحديث عن السيّاب والعراق وبغداد. آه، ذلك كان زمنا آخر مرّ سريعا بل اختفى وذاب بين الأيّام.

تلبّدت الغيوم في سماء البيت، وتفاقمت المشاكل والخلافات بين أمّي وأبي، وانطلقت رحلة سوداء في حياتنا تقرّر الطلاق لأسباب أجهلها في حقيقة الأمر، لكنّي انتصرت لأمّي وكرهته بعد النقمة

* * * *

خريف2000

الوالد يرسل الوفود إلى البيت. يصدر التّنبيهات الصّارمة. لا تقولي لاحقا إنّك ابنة سي عيّاد...تبرّأت منك...انتهت علاقتي بك...لم يبتلغ ما بلغه من أخبار تنتشر في المدينة وتبلغ الحيّ... أردّ عليه وعلى الأشخاص الذين يرسلهم لي ولأمّي...فليكن... لتسقط أبوّتك لا حاجة لي بها...ماذا تريد مني بعد أن شرّدتني واقتلعت آخر ابتساماتي؟ أمازال لديك شعور وإحساس بأنّي ابنتك؟

لقد دفنت هذا الشعور منذ تركتنا. منذ فعلتها وتركت أمّي تصارع الحياة وحيدة كرهتك. لم أعد أرغب في رؤيتك. لو كان بالإمكان شطب هذا اللقب من بطاقة التعريف لفعلت...هل استفاق شعورك الآن؟ لماذا لم يستفق حين كان الجوع يهدّدني والكتاب ترفضني والأقدام تطحنني...وكنت أصارع حياة بائسة وأبحث عن شغل يسدّ الرّمق وأنت هناك في البرج العالي. تكتري شقّة في عمارة على ذمّة إحدى المؤسّسات العمومية...كنت تهدّد وتصيح...بلغك أن ابنتك التي كانت حلما انزلقت مباشرة نحو الجحيم...انتفضت، صرخت، طرقت الباب، أرسلت الكثير من أصحابك ثم استسلمت وجرفك التيار. صرخت: شرفي...كرامتي...ولكنّي مضيت ولم أبال بك...كان لابدّ من الطريق إلى مادام لتبدأ. كلّ الأبواب التي طرقتها أوصدت ونحن نحتاج إلى أشياء كثيرة...

تعثّرت خلف الوالدة ذات عشيّة خريفيّة. فكّرت في الرّجوع إلى الوراء مرارا. كان بي خجل لا يوصف. ما تعلمه الوالدة أنّ "المادام" لها علاقات كبيرة، وبإمكانها المساعدة على شغل. سمعت ذلك من جاراتنا اللواتي روين لها حكايات كثيرة عن تلك علاقاتها وعلاقاتها الممتدّة.

أمام الباب خرجت لنا عجوز غليظة ذات قبّعة وزيّ رياضيّ. بمجرّد ما أمسكت بها الوالدة وظلّت تبكي وتشهق مستعرضة مراحل حياتها وظروف عيشنا وما تلقّيناه من أجوبة وردود على مطالبنا الكثيرة...ظلّت مادام نبيهة تزمّ شفتيها و تتمتم:

"أهذا الأستاذ عيّاد؟ أيفعل هذا ثمّ يتشدّق بأنّه معارض للنّظام ويطالب بالديمقراطية وحقوق الإنسان؟ سأفضحه والله..."

ترجتها أمّي بأن تطمئنها حول مصيري فبثّت بين جوانحي رعب الأمل:

"وفيقة ابنتي...سأفتكّها لك...لا عليك...غدا يطرق [illegible] عبد العزيز"

تردّدت أمّي:

"سي عبد العزيز رفض سابقا..."

قاطعتها مادام نبيهة:

"يرفض؟ هه...أنا من أحكم وليس هو...أنا صاحبة [illegible]"

ثمّ أضافت بكلّ ثقة في النّفس:

"لم يخلق بعد المسؤول الذي يلوي عصا الطاعة في [illegible] كلّهم رهن إشارتي ويخافون على مناصبهم"

صباح الغد كنت هناك...لم أسلّم عليه بخوف مادا [illegible] ولم أهتمّ بأسئلته التي يكرّرها في كل مرة..."تفضل [illegible] الموضوع" ثم يعقّب مكشّرا "في اجتماع" أو "ليس [illegible] وأنصرف خائبة ...

اليوم صفعته قبل أن يشرع في طرح أسئلته المعتادة ... [illegible] قائلة:

"من طرف مادام نبيهة".

تهلّلت أساريره ولوّح بابتسامة عريضة فيها ما فيها من الاستعطاف والذّلّ:

"حاضر مادموازال" وهو يشير بيديه إلى المقعد الوثير في قاعة الاستقبال ثم دلف إلى مديره.

تفقّدت الرّسالة المغلفة التي سلّمتني إيّاها مادام نبيهة في أسلّمها له. ابتسمت قائلة في نفسي: "لعلّها رسالة مثل تلك التي حملها المملوك جابر إلى ملك الروم من الوزير العلقمي في مسرحية سعد الله ونوس..."

لم يطل انتظاري. فتح باب المكتب بترحيب شديد. [illegible] سي عبد العزيز مرحّبا...ضغط على الزّر وهو يتسلّم الرسالة ويقدّ [illegible]

[illegible] من الحاجب أن يفرح بي فسارع بجلب قهوة وقارورة [illegible] إيصال الرسالة على عجل:

[illegible] من طرف مادام...! مرحبا! حاضر!"

* * * *

"مادان"نبيهة"

وهكذا يطلقها البعض بمن فيهم والدة وفيقة وبعض الشيوخ [illegible] منها حزبيًا والذين يذكّرونها برائحة قديمة. حينما كانت [illegible] قراهم لتشرف على الاجتماعات زمن الزعيم. لم يكن هؤلاء [illegible] بين "مادام" و"مادان".)

ماذا فعلت مادام نبيهة؟ هل هي ساحرة كبيرة؟ لا بل هي حكاية امرأة قويّة خدمها الجسد ورفعها..."مادام"....حكاية زمن [illegible]

يغلق عمار عطريّته الصّغيرة التي استقرّ من أجلها في المدينة [illegible] يجيء بفرسه الشّهباء التي يودعها عند إخوته في الرّيف طوال السّنة ويعود إليها أواخر جويلية، يضرب صدره مفتخرا "فارس ابن فارس"...الفروسية هواية العائلة...لا يطيب له مقام إلا إذا جاءته دعوة للمشاركة في مواكب ميلاد الزعيم بورقيبة التي تنتظم سنويا بمدينة المنستير مطلع أوت.

يفتخر بهذا الموعد ويحبّ أن يراقص فرسه أمام بورقيبة. يطمح أن يلمسه. أن يشدّه من يديه أو أذنيه...فرصة ظلّ يبحث عنها طويلا ليطلب ما عنّ له، لكنه يكتفي كل عام ببعض الدنانير ورسالة شكر يعلّقها في دكانه الصغير...يحمد الله على ذلك ويفتخر به...حين اصطحب معه نبيهة لأوّل مرة وكانت في الثانية عشر من عمرها لتكون مع الفتيات المستعرضات. سخر منه بعض

أهله ومعارفه ولكنّه لم يبال...كانت تلك انطلاقة أخرى في حياة هذه البنت. خيّل إليها أنّها أصبحت ذات شأن ونشأت في ذهنها طموحات. تركت الدراسة وكبر عمار وماتت فرسه وانقطعوا عن دعوته لكنّها ظلّت تتردّد على الاحتفالات التي تقام سنويًا بمناسبة المنشير...لاح جمالها الوافر وهي تبلغ العشرين وترتدي القميص الرياضي الأحمر والأبيض وتحمل العلم الوطني.

وصارت نجمة في كواليس الاحتفالات...أغرم بها كهل في الخمسين يتحمّل مسؤولية هامة في الدولة...فتزوّجها.

قطنت العاصمة رفقة زوجها المتصابي الذي اعتزل زوجته الأولى بالتراضي. انتقل بها من الخصاصة إلى رغد العيش ومن عيش مع والدها الشيخ العابس والفقير إلى عيش مع رجل ثري وصاحب سلطة وسكير لا يبالي بها وبما تفعله...عرفت الفنادق والنزل والسهرات الباذخة...خالطت نساء الطبقات البورجوازية تخلصت من القيود والنواميس واستقبلت في ديارها عليّة القوم وهم في حالات شتى. منهم من قضى ليلته سكرانا ومنهم من جاء بخليله بلا خجل...حياة أخرى تختلف عن حياة المدينة الصغيرة والحيّ الشعبيّ. زوجها أيضا له مجونه وفساده. لا يهمّها من الأمر شيء...يهمّها نصيبها من المال الذي تكسبه...تعرف جيدا أن هذا الكهل لن يدوم...أتقنت اللعبة...ما يهمها نصيبها من العقارات والأملاك التي يكسبها أو يسجلها باسمها.

حينما تعود إلى موطنها تعود مبجلة فهي زوجة سي ... يستقبلها بعض المسؤولين ويزورها كثير من الوصوليين ممن تعرفهم ولا تعرفهم طمعا في وساطاتها وخدماتها...

فجأة عزل زوجها ولم يُختَم بلاغ عزله بتلك الجملة الشهيرة "دعي إلى مهام أخرى"...قبل إنّهم تفطّنوا إلى سرقته للدولة وإلى

إلى الوطن وفرّ قبل تنحيته...وجدتها فرصة مناسبة للطلاق والتبرّؤ منه وهو ما جلب لها احتراما من السلطة وقيل إنّ توصيات صارمة صدرت بعدم المساس بها ومكافأتها على موقفها الوطني. لقد وقفوا في تصريحاتها سندا لقرار العزل ونشروها في كلّ الصحف. عادت إلى المدينة الصغيرة تحكم بإشارة منها. يخشاها المسؤولون لأنّها ذات نفوذ مستمرّ. أصحابها ومعارفها ينتشرون في كلّ المواقع وفي كلّ الوزارات و في إدارة الحزب والاتّحاد الجهوي...لا أحد يقدر من هؤلاء المسؤولين الصّغار على ليّ أعناقهم في يدها...هي تعرفهم واحدا واحدا وتتحكّم فيهم وتعرف بطاقاتهم السّوداء وتمتّ تسمية كثيرين منهم بتدخّلها وهي قادرة على عزل من تريد بمكالمة هاتفيّة...

من أوراق همّام السمرقندي...

صيف2008

سعداء برائحة السّوق حوت، دجاج، أوارة
بيض ،مخارق، حمص ،زبيب، حبق
سعداء بهذا الذي بين أضلعنا
لازال برغم الرّزايا يدق
سعداء بأنّ لنا موعداً قرب شامنها
بعد وصف العنق
سعداء بلا سبب هكذا بعد منتصف العمر
والصّبر
من حقّ شمعتنا أن تذوب وأن تحترق

محمد الصغير أولاد أحمد

كانت مزحة صغيرة...
همس عكروت لجليسه:
"يبدو أنّ علالة الزيني سيعزل بعد أيّام...سمعت ذلك من مصادر خاصّة وموثوقة..."
ابتسم عمران: "الحمد لله..."
يتفعل حميد وهو يحرّك يديه ويرفع صوته:
"المنصب منصبك بحول الله. لن يفلت منك هذه المرّة."
يفهقه عكروت بصوت عال:
"وهل هذه البلاد تؤمن بالكفاءة والخبرة؟ سي عمران اكتوى بهذه النار مرّات...التّعيينات في المناصب تتطلّب ألاعيب كثيرة

إشارة من هذا أو ذاك قد تبعدك وتقضي عليك وإشارة من ... قد تفتح أمامك كل الأبواب...افهمني جيدا عمران. لا تنتظر ... طبقا على ذهب. لا بدّ أن تتحرّك وتطرق الأبواب...لا ... أن تبذل...لا بد أن تتحرّك...لا شيء يهدى يا صديقي."
يقاطعه عمران:
"نعم ولكن أيّ أبواب؟"
يردّ عكروت:
"وهل تخفى عليك هذه الأبواب؟تجرّأ...اقتحم..."
يهمس حميد:
"لا بدّ أن تقابل السيد الوالي والسيد الكاتب العام والسيد... والسيّد..."
ينتفض عكروت:
"أوه. هؤلاء لا يستطيعون شيئا...هم يحافظون على مناصبهم بصعوبة..."
يعمّ صمت ثقيل يقطعه عمران:
"ما العمل؟"
تتهلّل أسارير عكروت:
"لا بدّ من السّفر نحو العاصمة. هنالك نجد الناس الذين يستطيعون فعلا. الذين يقابلون الوزير ويجلسون معه. أولئك يستطيعون فعلا..."
ردّ عمران:
"ومن أين لنا بهؤلاء؟"
تمتم عكروت:
"واتق على السفر والبذل وسترى...لديك رجال...أعرف من يستطيع خدمتنا..."
ردّ عمران:

"دون تردّد...فليكن..."

يعقّب حميد مبتسما:

"نشكّل وفدا..."

عمران على استعداد لدفع الغالي والنّفيس من أجل أن يحظى في منصب ولو ليوم واحد نكاية في ابن عمه عبد الرّحمان وفي زوجته...توقه إلى كرسيّ وثير لا حدود له.بلغ به الأمر إلى توزيع إشاعات في قريته عن قرب تعيينه مرارا.يزعم لهم أنّهم اتّصلوا به وهو بصدد التّفكير في عرض رسميّ وحين يسألونه بعد أيام يختلق أعذارا حالت دونه والمنصب...يريد عمران أن يثأر من ابن عمّه عبد الرّحمان الذي أصبح محاميا ثم ولج عالم السّياسة والمناصب...هو الآن في العلياء...قد يعيّن وزيرا في الحكومة القادمة التي يكثر الحديث عنها رغم أنّ تعيين وزير من سيدي بوزيد أمر مستبعد. حصل ذلك مرّة واحدة طوال عقود دولة الاستقلال...عمران أيضا يريد أن يصبح مثل ابن عمه وأن يتدثّر بالخيرات وبالتّبجيل...

خرج عمران متأبّطا حافظة أوراق بلاستيكيّة جمع فيها أوراق وشهائده البسيطة، وراح يركض هنا وهناك..."مواطنا صالحا" يتمسّح على الأعتاب ويتدخّل في النّدوات الحزبيّة ويكتب التّقارير ويتفنّن في الهتاف ويقيم الولائم ويدفع ثمن كؤوس القهوة والشيشة وعلب الجعة ومشاوي "فايض"[3] والرحلات إلى نزل العاصمة وسوسة والحمامات وسبيطلة...يدفع...ويدفع بؤمن تماما أنّ هذا الدّفع طريق نحو النّجاح...

أصبح عضوا في جمعيّة الرّقص العصري. لا حبّا في الرّقص أو الفنّ بل خطوة في سلّم طويل يجب أن يتسلّقه. ثمّة من جاء إلى

[3] فايض: منطقة عبور شرق سيدي بوزيد تعرف بتميّز مشاويها

إلى هذه المهمّة ليكون عينا له في دار الثقافة...الكلّ تحت مراقبته...الحزبي واللا حزبي، المنتمي واللامنتمي..."البلعوط" و"ولد باب الله"، كل هؤلاء تحت المراقبة: المدير، الموظفون، العمال، الحراس، الكتاب، الممثلون والموسيقيون...

تقرير فوري يرفع خلسة كلّما جدّ أمر غريب...هي المهمّة الحقيقية التي يمارسها داخل الجمعية...لم يعتقد يوما أنّ ما يمارسه يمارس عليه خلسة. هو يراقب المعارضين وهم يراقبونه ويعدّون أنفاسه لأنّ طموحه يزعجهم ولأنّهم لا يثقون به.

هو أيضا له عين تراقبه...كلّفها سي عبد العزيز نفسه بمتابعته لأنه ليس محلّ ثقة عنده إلى درجة كبيرة...الراقصة وفيقة تتابع حركاته وسكناته...هي أيضا لها مهام سرّيّة أخرى في هذا المكان هي عين لمادام "نبيهة" التي تتحكّم في الجميع...مادام نبيهة التي يرتعد أمامها سي عبد العزيز...

أحكمت وفيقة قبضتها على عمران. كثيرا ما قبع ينتظرها في ذلك المطعم حاملا أوهاما كبيرة. يغدق عليها ما تيسّر من أوهامه وأمواله. الفرقة الموسيقيّة التي تشتغل معها لا تفي بالغرض. يعدها بالزّواج بعد ظفره بمنصب سياسي مرموق...قرار الطلاق جاهز في ذهنه. زوجته القروية الأميّة النّحيفة لا يمكن أن تكون زوجة مسؤول مثله ولا يمكن أن تقبل بالانتقال إلى المدينة. هي تمقت المدينة وتكرهها ولا ترتاد السّوق إلاّ نادرا...حياتها هناك مع الأغنام والدجاج والعشب وكأس الشاي الذي لا ينقطع عن الفوران أما المدينة فعلبة ضيّقة لا تحتمل...تسخر وفيقة في داخلها من عمران فهي تحلم بفتى أشدّ خفّة ووسامة وجمالا وأكثر مالا. وتحلم بمغادرة هذه المدينة نحو أفق أرحب. تريد مغادرتها للهروب من النظرات الساخرة والقاضية والعيش مع قوم

لا يبالون بشيء. تريد أن تنتقل إلى مدن تبيح الرّقص والسّهر حتى الفجر وتعجّ بالنّزل الفخمة والملاهي.

مومس. هي كذلك في نظر الجميع. بما فيهم سي عبد العزيز ...هو لا يراها أكثر من ذلك وهو يستغلّها ويستخدمها في ألاعيبه وملذّاته. عمران فقط يردّد علنا:

"فتاة مثقفة...يمكن أن تصبح نجمة إذا وجدت العناية..."

وقع في الحب...هو يغنّي وهي ترد عليه هازئة...هو ينفق ويمني نفسه بالولائم وهي تزيّن له ذلك وتتمنّع...تؤجّل، تتلاعب...لم ييأس فهو يحلم أنها ستجثو يوما عند ركبتيه وتتمسّح على أعتابه حين يلج المكتب الكبير ويرتخي على أريكة السّلطة التي تدور...

* * * *

تشكّل الوفد بعد أيّام قليلة وانطلقت السيارة ذات ظهر نحو العاصمة يقودها عكروت وعلى يمينه تجلس الراقصة وفيقة وفي الخلف يحشر حميد وعمران...رحلة تنطلق آخر الظهر. لكل مآربه الخاصة. عمران تأنّق اليوم كما لم يتأنق قبل، وتزوّد بلفافة من الأموال...هو من يتكفّل بكلّ مصاريف الرّحلة يطارد كرسيّ علالة الزيتي الذي يروج أنّه سيشغر قريبا ويسابق بيانات الصّيف التي يقرؤها مذيع بصوت أجش:

"رئيس الدولة يقرّر تعيين السادة....."

حميد يبحث عن فسحة من جهة ويريد إبراز تضامنه مع عمران لغاية في نفس يعقوب...يريد أن يكون عمران إلى جانبه في المواعيد السياسية القادمة...شعب ولجنة مركزية...هو لا يريد عمران مسؤولا ولكنه يريده مجرد تابع، يجري ويلهث ويعلّق البيانات ويفاوض البدو ويلعب الملاعيب الانتخابية التي يبرع

فيها...من هذه الناحية هو يثق فيه وفي قدراته أمّا الظّفر بالمسؤوليّة فليس إلا مزحة ثقيلة ووهما كبيرا يستولي على عمران...أمّا عكروت فيريد صيد عدّة عصافير بسلاح واحد... يبحث عن معلوم الرّحلة وعن المرح. لن يفرّط في مليم واحد. معلوم كرائه كسائق سيكون مهمّا واستثنائيّا سيضاف له مبلغ الوساطة. يكتم سخريته. أصرّ على أن يكون حميد في الرّحلة. له مآرب أخرى لم يفصح له عنها بعد...هو يتصنّع صداقته منذ أسابيع...يطوف به في سيّارته من مكان إلى آخر ويرابط معه ويدفع نيابة عنه ثمن بعض الخمور في الجلسات البسيطة التي لا تكلّفه مبلغا باهضا لغاية في نفس يعقوب...هو لا يحبه ويحمل عنه ذكريات سيئة تعود إلى بداية التحاقهما بالوظيفة...كان حميد نقابيا وعكروت بوليسا سياسيا سرّيّا...زرعت بينهما بذور الكراهية طويلا ووقعت بينهما المشاحنات...حميد كان يشتكي للنقابة وعكروت كان يكتب التقارير...فجأة انقلبت الموازين... حميد هجر النقابة...بدأ يتقرّب من هذا وذاك...ألحق بموظفي الحزب... لم يغفر لعكروت ماضيه معه...ظلّ يمقته ويحاربه حتى تمّت نقلته إلى جهة بعيدة ثم عزل يوما ذات واقعة مجهولة. يتكتّم عن تفاصيلها الحقيقيّة. لا يصدّق كثيرون ما رواه. ويهمسون: "مازال يشتغل سرا"...حين يكون عكروت في صراع مع بعضهم يزعم أنّه لا يقبل الذّل ولا يطأطئ رأسه وأنه ألقى الزيّ على المسؤول وغادر عمله. ولكنّ بعضهم يروّج أنّه مطرود بسبب رشوة. مرّت السنوات واختفت الوجوه التي كان يزعجها عكروت، ترهّلت وكبرت وجاءت وجوه أخرى لا يعرف عنها إلا النّزر القليل...بعد هذه الأعوام يقول عكروت لنفسه "يجب أن أكسب حميد...يجب أن يسلّمني مفاتيح الأبواب المغلقة...يجب أن يركع...يجب أن ينسى الماضي ويساعدني على انتداب ابنتي الذي طالت بطالته..."

وفيقة تعشق هذه السّفرات...هدفها الخروج من المدينة لتحيا خارجها ساعات حرية بعيدا عن الأنظار وعن ابتزاز هؤلاء الكهول والشيوخ المتصابين. هم جميعا يحلمون بالنوم معها في الليل وهي تعرف نواياهم. هي مومس ولكنّها تتوعدهم في سرّها بالخيبة...لن ترضخ لأحد منهم...هي تتشوّق لرؤية سي عفيف، هو فقط قد يكون شابّا وسيما وقد يساعدها. هي أيضا لها أحلام مدفونة، تريد الترسيم في أي وظيفة وتريد كشف تحرّشات المسؤولين بها، تريد الانتقام لجسدها ولشرفها منهم...

في لحظات حوار مع النفس تريد الانتقام منهم جميعا...لن تترك أحدا، سي عبد العزيز نفسه...الكلّ في سلّة واحدة...ألقي بها الزمن بضراوة أمامهم...

* * * *

يقود عكروت السيارة وحذوه وفيقة. يرمقها بنظرات تفيض شهوة ويحاول أن يختلق معها بعض الأحاديث، أمّا في المقاعد الخلفيّة، فيقبع حميد وعمران يتحدّثان عن السّياسة، يمجّدان الرئيس ويحلّلان الخطابات ويتذاكران ما ورد في الأخبار.

من حين لآخر يهتف عكروت "لوّح...."

ويرمي العلبة الفارغة من البلّور ثمّ يهيم بأخرى يجذبها نحوه وهو يترنّم:

"اليوم خمر وغدا أمر"

تتردّد وفيقة في الشّرب خجلا من حميد...يلحّ عليها عكروت ضاربا فخذيها بلطف:

"اشربي...حميد متاعنا...عندو صاحبتو أصغر منك.اشرب..."

تمنّعت دقائق ثمّ خضعت وشربت وتناغمت مع حاكي السيارة بالرّقص والغناء.

يحبّ عكروت أغاني عبد اللطيف الغزّي وإسماعيل الحطاب وبلقاسم بوقنة...شغّل حاكي السيارة ومضى يترنّم...

"لفي لفي...كان أنت هي العرافة...إلّا ها هو كفّي"

يهتف عكروت على وقع الجملة الأخيرة ويصفّق بكلتا يديه...

سارت السّيارة مترنّحة والأربعة يشربون ويثرثرون ويصفّقون...

سيكون الوصول قبل الغروب لمقابلة عفيف المستشار الشّخصيّ للوزير حسبما ذكر لهم عكروت، هو الوحيد الذي يعرفه...

الترتيبات واضحة...لن يتكلم أحد، عكروت هو الذي سيفاوضه جلسة ويتّفق معه...البقية لن يكون لهم حديث في هذا الأمر...

"لا تكثر من اللغو أمامه يا عمران...كن لبقا...لا تظهر مندیلك الأنفيّ القديم أمامه..."

السّيارة مترنّحة والرّكّاب مترنّحون...صوت الأغاني البدوية ينبعث من السيارة...وفيقة تحرّك جسدها راقصة...حامد وعمران يدندان ويصرخان، عكروت خبير بالسياقة. اعتاد هذه السفرات الماجنة. يلهف المزيد من العلب والقوارير...في قرارة نفسه يجب أن يبتزّهم جميعا. عمران سيلهف منه الأموال، حميد سيتدبر له مصالح في لجنة التنسيق...وفيقة ستصبح صاحبته وسينال منها.

يفكّر قليلا في غنائمه ثم يعود ليغني ويثرثر.

* * * *

"ادفع يا عمران....من أراد العلا سهر الليالي" ادفع واشرب وشنّف سمعك مليّا...أنصت لحميد يحدّثك عن مؤتمرات الشّعب والجامعات وكواليس دار الحزب وحسابات سي عبد العزيز ومشاكله الخفيّة مع علالة الزّيني وصراعهما الخفيّ على القائمات

الانتخابيّة. لكلّ حساباته ومشاريعه....ادفع وأنصت ولا تنبس بكلمة...لا تحرجنا أمام سي العفيف..."

مائدة مستديرة في نزل فخم...علب ومأكولات متنوّعة... عمران ينصت إلى هذيان حميد ووفيقة تتجاهلهم جميعا وتتغازل مع عفيف في همس متواصل والعكروت يغلي الدم في رأسه يستيقظ الضّمير المحلّي في نفسه فيكشّر عن أنيابه بضع دقائق:

"أيّ نخاسة هذه؟ نحمل أنثانا إلى غريب؟"

ثمّ هدأ ولسان حاله يقول:

"فلتذهب إلى الجحيم، الجسد جسدها فلتسلّمه حتّى للكلاب"

ينطق عفيف قاطعا تفكيره:

"سي عمران...ألف مبروك...ملفّك وصل...السّيّد الوزير منبهر به. لقد وجد ضالته في شخصك الكريم وسيحمل ملفّك إلى فخامة الرّئيس، قضي الأمر...يمكنني أن أهنّئك من الآن..."

تعمّ موجة فرح وقبل تهنئة...وقف عمران...قبّل عفيف، ثمّ وضع في جيبه لفافة أموال.

بعد دقائق، أحس حميد بالنّعاس فجذب معه عمران وصعد به إلى الغرفة هامسا في أذنيه بضرورة الانضباط من الآن فصاعدا... يجب أن يتعلّم أخلاق المسؤولين ولا يظهر في الأماكن العامّة كثيرا...ضحك عكروت في سرّه:

"قضي الأمر...احلم بالمنصب ياعمران...احلم بالكرسيّ الوثير وبالكاتبة الجميلة وبالجماهير التي تبايعك في القرى والأرياف، وتملأ سيّارتك بالخرفان والهدايا، واحلم بالوشاة يتدافعون عند باب مكتبك محمّلين بالتقارير والوشايات."

خلت السّاحة الآن...العفيف وعكروت ووفيقة على انفراد... بدا عكروت وكأنّه لم يشرب شيئا بعد، هو مستعدّ دائما للمزيد.

قال موجّها حديثه إلى عفيف:

"الآن تبدأ السهرة الحقيقية...الآن تسقط الحجب...الآن نسي سيدي بوزيد ومؤتمرات الشعب..."

ضحك عفيف ملء شدقيه:

كأنّنا كنّا في لجنة تنسيق..."الآن ...الآن...تبدأ السّهرة..."

كرّر عكروت كلامه جاذبا وفيقة نحوه. لكنها تمنّعت وابتعدت عنه قليلا ورمقته بنظرة احتجاج. ثمّ مالت على العفيف والتصقت به وصبّت له كأسا ثمّ جذبت نفسا من سيجارته. احترق عكروت في داخله. لعنها في سرّه. ثم قال بينه وبين نفسه "يطول ليلها وتعلف" وصبّ بقايا القارورة وهو يشير إلى النادل:

"الآن نريد الخمور العتيقة...نريد الموسيقى...نريد....." ثمّ لاذ بصمت رهيب...آه لو كان الظّرف غير الظّرف أيّتها المومس وأمّا وقد وضعت نفسي في هذا الموقف فليس لي أن أتحمّل العار و الذّلّ..."

"يطول ليلها وتعلف"

ردّدها مرّات في سرّه منتظرا أن يتهاوى العفيف ويسقط ثملا، يدرك ذلك بحكم علاقته به وتجربته. لن يصمد أكثر من دقائق وينهار...يمكن أن يبكي كعادته ويترع عنه القناع...في لحظات السّكر تسقط أقنعة عفيف، يعود إلى واقعه البائس ومشاكله العميقة: طليقته التي تطالب بأشهر من النفقة وابنته الطّالبة التي تزوّجت رغما عنه وقضيّة الشيك دون رصيد المتعلّقة به...الدعوى التي رفعها ضدّه مواطن لهف منه الملايين بعد أن أوهمه بقدرته على التّدخل لانتداب ابنه في مناظرة الكاباس، هواتف المخدوعين الذين تقطعوا لتحيّله وصاروا يلاحقونه أو الذين مازال لديهم أمل في تحقيق مآربهم وعليه أن يعدّ لهم أكاذيب جديدة.

مشاكل كبيرة يغرق فيها عفيف ولكنّه مازال قادرا على اختلاق سعادة وهميّة والمتاجرة بأحلام البسطاء الباحثين عن قشّة تنقذهم من الغرق الذي وقعوا فيه وما أكثرهم...

بينه وبين عكروت ذكريات قديمة ومؤامرات كثيرة تعود إلى سنوات الشّباب المهدور...لا يتورّع عكروت عن جلب ضحايا جدد كلّما سنحت الفرصة مقابل جلسة خمريّة عتيقة لذكرى زمن قديم مازال عالقا في الأذهان و لفافة أموال.

* * * *

ابتهج العفيف عندما هاتفه العكروت:

- لدينا ضيف جديد...يجب أن تفرح به...

- متى؟

- أنت تحدّد المكان والزمان

- غدا في النزل...

- اتّفقنا

ليست المرة الأولى التي يفعلها العكروت ويبيع الوهم... العشرات ركبوا هذه السيارة وهم يحلمون وقابلوا هذا الرّجل صاحب النّظّارات السّوداء، عفيف مستشار الوزراء والعارف بكلّ الخبايا، هكذا يقدّمه عكروت لحرفائه...للعكروت قلب من حجر فهو لا يرحم...هو نفعي. تهمّه مصلحته فقط...يضحك من الجميع...من الطامع في منصب يقدّمه له عفيف ومن هذه الرّاقصة وهي ترى عفيف في أناقة الوزراء وتصدّق أنّه مستشار الوزير العازب..."عفيف" يظهر في كلّ مرة في الموقع الذي يريد...مرّة هو صحفي عالمي يشتغل في الصحف الدّوليّة ويكتب بلغة أجنبيّة، ومرّة هو مستشار الوزير أو مدير ديوانه، ومرّات هو عون الأمن السري أو رجل المراسم الرّسميّة...أدوار يتقنها كي

يعبث مع هؤلاء. يستقبل القادمين من الجهات طلبا للحاجة. ينال منهم ثم يختفي...

حينما أبصرته الرّاقصة وكانت مخمورة تراءت لها أحلام كبيرة. عزمت على أن تنتهز فرصتها. فرصة الوصول إلى الأبواب المغلقة والرّمي بكلّ هؤلاء جانبا. تراءت لها أحلام كثيرة. صمّمت على أن تلعب دور العاشقة. لن تفرّط في عفيف ولن تعود مع هؤلاء. ستسلّل معه آخر اللّيل إلى غرفته وستمكث عنده أيّاما تقابل خلالها المسؤولين والفنّانين وستشكو للوزير معاناتها. هي على استعداد لتدوس على الجميع وتتجاوزهم. لن يكونوا أفضل من والدها عيّاد الذي أنكرته وقطعت به كلّ صلة.

بردّد عكروت في سرّه و هو يزدرد كأسا آخر:

"أوشك على الانهيار. وستبقى لي وحدي. سأعذّبها تعذيبا عفيفيّا. المومس تتهرّب مني أنا عكروت وتميل عليه، سترى ما أنا فاعل بها هذه اللّيلة، لن تنسى ما سيحدث لها طوال حياتها، سأصفها قصفا عنيفا."

ظلّ يرمقها بغضب وهي تميل على عفيف وتغنّي له وهو يتلذّذ المشهد في صمت ويعبّ القوارير بحذر. يشعر بعجزه عن المزيد لكنّ مقتضيات الجلسة تمنعه من الاستسلام قبل عفيف...هكذا اعتاد أن يحافظ على صموده حتى ينهار كلّ النّدماء.

فجأة اهتزّت وقيقة وتجمّدت. تيبّس الحلق. صمتت واستوت في جلستها وحاولت أن تخفي وجهها...تمنّت أن تبتلعها الأرض. كيف ستنظر له؟ كيف ستمدّ يدها؟ كيف ستغفل؟

* * * *

كأنّ شيئا لم يكن...

كان يجب إيقاف هؤلاء صباح هذا اليوم...من العيب أن يظل طلقاء أحرارا...لابد من إيقافهم على الفور والتحقيق معهم...

* * * *

"عكروت" يتزوي وأصحابه في ركن من حانة المدينة تباع أغلب العشيّات. يعبّ من القوارير الخضراء بشراهة ويلعم الفول اللّيّن السّاخن ويقهقه بصوت عال ويطلق النكت البذيئة والرّديئة ويردّد ما سمعه من حكايات جنسيّة.

حدّثني صاحب عربة الفول يوما عن انزعاجه منه. فهو أحد الصّحون وقلّما يدفع...يتعلل بالنسيان والإفلاس و"سجل على الحساب ياعم برهوم...سجّل على الحساب ياعم". ولكنّ الحساب قد ثقل...أنا بدوري نسيت المبلغ وأتلفته...ولا أطمع في أن أرد حقي...تعلاّت لم تتبدل منذ سنوات...يكاد عم برهوم يقهقه كلّما هتف "يا فول" وأشار إليه بإصبعه، ولكنه يلعن الشيطان ويطأطئ رأسه خجلا...كيف يفعلها مع سي عكروت؟ كيف يكشّر في وجهه وهو يجالس الكبار ومن بيدهم "الحلّ والعقد" وبإشارة منهم تقضى الحوائج .

يصمت قليلا ثمّ يستدرك قائلا: "هم جميعا لم يجحدوا فضل الفول عليهم، كلّما قصدت أحدهم قضي الأمر"

لاحظ عمّ برهوم ابتسامة خفيّة منّي فهمها تكذيبا له فقال:

"تقف أنت وأمثالك من المتعلّمين والموظّفين والمثقفين وعموم المواطنين البسطاء أمام مكاتبهم، تنتظر وترمقك أعينهم

الفارسة. بتجرأ عليك أعوانهم. يكاد بعضهم يطردك. تنتظر في الطوابير ويدفعك المتزاحمون ولكني أصل وأتسلّل. تستقبلني وجوههم ببشاشة. لعلّي أذكّرهم بأجمل ساعاتهم "تفضّل عمّ برهوم..."

هؤلاء الذين يجالسون سي "عكروت" بوسعهم أن يفعلوا أي شيء، بوسعهم سحب منحي التي أنقاضاها من وزارة الشؤون الاجتماعية وبطاقة العلاج المجاني ورخصة عملي وبوسعهم أيضا أن يهبّوا كالكلاب المسعورة ويدفعوا عربة الفول وبيعثروها كما فعلوها معي ذات مرّة حين أرسلهم ذلك المعتمد سامحه الله"

قلت: "وما الحكاية؟"

قال: "كان ذلك ذات ديسمبر..."

ضحكت لأني فهمت الحكاية منذ مطلعها...أضاف:

"أرسل لي عونا من أعوانه طلبا لمبلغ مالي مساهمة في صندوق التضامن فرفضت...عشيّتها طاردوني ومنعوا انتصابي هنا وهناك ولمّا عثروا عليّ في أحد الأنهج افتكّوا العربة وأخذوها ولم أسترجعها إلا بعد أسبوعين بتدخل من بعض وزّاد الحانة من الحزبيين..."

يعتقد بائع الفول أنّ "عكروت" سيّد المجلس ولا يعرف تململه وجلوس البعض حلوه على مضض فهو كثير الشغب والخصومات والضّجيج ويقال إنّه ينقل الأحاديث ولا يحفظ الأسرار.

حين صحّحت له الصّورة، زأر في وجهي:

"أنا أعيش في هذا الشارع منذ أكثر من ثلاثين عاما...أعرف الكبيرة والصغيرة...أعرف كل الانتهازيين والسوقيين وأعرف كلّ المومسات."

* * * *

في ريف معزول ينتمي إلى ما يسمّى بمناطق الظلّ، يتجمّع الأهالي منذ الصباح في محيط المدرسة الابتدائيّة انتظارا لزيارة مسؤول كبير واستجابة لإلحاح العمدة الذي أشاع فيهم أنّ وفدا سياسيّا قادما من مركز الولاية وأوصاهم بالحضور المكثّف وإنجاح الزّيارة والاكتفاء بالتّصفيق والهتاف وتجنّب الشّكايات والملاحظات الخارجة عن النّطاق واعدا إيّاهم بتحسين ظروفهم المساعدات الاجتماعيّة والحضائر الظّرفيّة بعد الزّيارة.

ينتصف النهار فتطلّ عليهم سيّارتان. سيّارة مركز الحرس الوطني تتبعها سيارة ثانية ينزل منها حميد وعمران...

يتمتم أحد المواطنين:

"هذا هو.....أووووووووووووه يا وذني...حميد متاع لبدة التنسيق والجامعة عنوان مصائبنا..."

يطلق الحاضرون زفرات الخيبة ولكنهم يصمتون ويدخلون القاعة كالقطيع خشية العمدة والحرس...يتصدّر حميد الجلسة ويخطب فيهم بحماس فيّاض فيقاطعونه مرّات عديدة بالتّصفيق والهتاف والنّشيد الرّسمي...كان عمران يفتح تلك الموجات الهيستيريّة فيتبعه الحاضرون ...

"أنا سعيد وفخور بتواجدي بينكم في هذه القرية الصغيرة بإمكانياتها، الكبيرة بقيمتها لما لعبته في المحطات الوطنية الهامة. وهي قرية الوفاء الدّائم لصانع التّغيير والسّند العظيم لمشروع التّحول المبارك...أودّ في البداية إبلاغكم تحيّات فخامة الرّئيس الذي يتابع مشاغلكم لحظة بلحظة وأبلغكم أيضا تحيّات السّيّد الوالي الذي يعدكم بزيارة قريبة ستكون مكلّلة بالإنجازات والمشاريع ولا يفوتني إبلاغكم تحيّات صديقي العزيز السّيّد المعتمد الذي تعذّر عليه الحضور لالتزاماته الكثيرة..."

بعد ساعة، كانت الوليمة في بيت العمدة ثم حصّة الصّيد في أحد الحقول. فحميد وعمران من هواة صيد الأرانب رغم أنّهما لا يجيدانه. كلاهما يتزوّد ببندقيّة قديمة موروثة عن والده...

قال حميد وسيّارته تغادر القرية:

"كان يوما جميلا...نعيشه الأسبوع القادم ونصطحب معنا عكروت فهو قنّاص ماهر..."

ردّ عمران:

"الأسبوع القادم لدينا مؤتمر...ومن يدري فلعلّ أمر مهامي الجديدة يحسم وأكون في مهمّة أخرى..."

أجاب حميد ضاحكا:

"لا عليك...لن يبلغوا عنك مثلما أبلغوا عن الوزير الذي قضى أمسية صيد فوجد خبرهم عند الرئيس صباح الاثنين في مجلس الوزراء..."

افترقا على وقع الضّحكات والقهقهات...لا شيء في البال. كأنّ شيئا لم يكن...في طريق العودة أعاد عمران مهاتفة وفيقة. لم يردّ هاتفها. قال في سرّه:

"لعلّها ما زالت تقضي ليلة أخرى في العاصمة مع عفيف. لا بدّ ستجلب منه المعلومات وستزيده إصرارا على تنفيذ وعده..."

* * * *

تضرب مادام تنيهة الأرض بعصاها، تزمجر بصوت عال وتتوعّد وهي تخاطب سي عبد العزيز هاتفيّا...

يشعر عبد العزيز بالضّجر والاختناق في مكتبه. لا يكاد هاتفه ينقطع عن الرنين. السّيّد الوالي يستفسر، رئيس فرقة الإرشادات يعلمه بأنه في الطّريق إلى مكتبه لطلب معلومات ضروريّة. مادام تنيهة تزمجر وتهدّده بأنها ستنال منه ومن كل المسؤولين وتمهله

ساعات...مندوب الثقافة يتبرّأ...ورئيس جمعيّة الرّقص لا يرد وهاتفه خارج التغطية...

مدير المهرجان الصيفي ينفي للمراسلين ما راج وقيل عن أن الحفل لن يلقى وأن الأمر إشاعة من ترويج الصائدين في الماء العكرة...البدو في الدكاكين يتناقلون الخبر بكثير من السّخرية والسّخط...

* * * *

سي عيّاد:

ينهض من المقهى.يهيم في الأرض.تلقّى الخبر منذ قليل عبر الهاتف...ما حذّر منه منذ سنوات قد وقع...فمن أين سيبدأ الآن؟ الأبواب متباعدة والخيوط منعدمة. يمضي في الشارع الطويل مكتئبا. يخطو ببطء. لا يعرف إلى أي طريق يتّجه...

"من مرّه زمن..."

يجلس عياد. يملّ الانتظار. يقف. يتأفّف. يتمشّى قليلا ثم يعود للجلوس. رئيس الفرقة لم يأت بعد...يقبع منتظرا بذاكرة مجروحة. صراع لا يهدأ يمزّقه...هي اللّحظة الفارقة التي توقّعها منذ زمن بعيد.لقد تكسّر البلّور. انتهت اللعبة مثلما قال السّفير العراقيّ محمد الدوري ذات عشيّة كئيبة وهو يغادر مبنى الأمم المتحدة على إثر سقوط بغداد. قضي الأمر ولم يعد ممكنا إصلاح ما تكسّر. أسمع ضحكات الأهل في دكّان القرية وأسمع قهقهات بعض كبارهم السّكارى وهم يتحلّقون تحت كروم الهندي يتجاذبون أطراف الحديث ويلوكون ما سمعوه اليوم في سوق السبت "بنت عيّاد...بنت عيّاد" "عيّاد موش راجل..." آه لو كنت مكانه..."

أسمعهم جميعا. ينقضّون عليّ كبقرة تحت الذّبح...يخيّل إليّ أني أسمع سالم ابن خالتي يصيح فيهم:

"اهتمّوا بأنفسكم، استروا ما ستر الله، كلكم بخير عميم، هل أعفاكم عن بناتكم؟"

وأسمعهم يهمهمون:

"فعلا...الوقت...الوقت تبدّل...الدّنيا انقلبت"

وأسمعه يردّد:

"سي عياد سيّد الرّجال...أنتم لا تعرفونه..."

وأشاهده يمشي منكسرا وهو يتّجه نحو البيت:

"ماذا حلّ بك يا عياد؟ أي زمان هذا؟ غدا أركب شاحنة النقل الريفي وأبكر إليك...ألهث معك وأبحث عن الحكاية..."

يسرّح عيّاد مخيلته ولكنّه يستفيق: "ربّما هي مجرّد تخيلات بعيدة. ربّما تغيّر سالم أيضا وربّما لم يعد لصوته شأن في تلك القرية فأولئك البدو تعلّموا الكثير وصاروا يجادلون ويجادلون..."

أندحرج إلى وسط المدينة...أمرّ عبر المغازة العامة فلجنة التنسيق حيث بعضهم يتسلّل في زهو وأمشي حتّى كشك ياسين في نسخته القديمة وقد بدا خرابا وهجره صاحبه. كنت أمرّ من هنا لأزمنة طويلة وأتزوّد بما لذّ وطاب من الصحف والمجلاّت. كم هي محزنة سيدي بوزيد بلا كشك ياسين[4] الذي يعدّ أهمّ معالمها. أتحاشى أن يعترضني أحد حتى لا أضطرّ للصراخ و رنين الهاتف لا يهدأ...هي تهاتفني لأوّل مرة منذ زمن بعيد...لأوّل مرّة يرنّ صوتها في جوّالي: "وفيقة يا سي عيّاد" كان يمكن أن أردّ عليها. اذهبي إلى الجحيم أنت وإيّاها...أتجاوز مقهى سمرقند

[4] كشك ياسين: كشك تاريخيّ يقع أمام مقرّ ولاية سيدي بوزيد كان صاحبه مراسلا صحفيّا وعرف بما كان يتوفّر فيه من صحف ومجلات الرّأي الآخر

بقليل...المركز على بعد خطوات...أقطعها بألم ثقيل، لاهثا أسأل عن باب قسم الأبحاث.

عند الباب ينتصب تلميذ سابق مازلت أذكره. فرح برؤيتي وقادني إلى قاعة الانتظار ووعدني بالمساعدة...اتجه إلى زميل له طالبا منه تسهيل مقابلتي مع رئيس المركز...سمعت همسهما:

- هل تذكّرته؟

- وهل يخفى القمر؟ سي عياد

- تبًا للزّمن الكلب...

- يا لزمن كان فيه يصول ويجول بين الصفوف...رافعا صوته وهو يقرأ أبيات المتنبي...أبيه...كم تمشّى وهو يقرأ بصوت جهوري: "من سرّه زمن ساءته أزمان"

- بلاد لا تحبّ رجالها و تدمّرهم .

صمت العون قليلا ثم قال لزميله:

-...يا للفضيحة! هل هو والدها؟مسكين

- أوقفتها مرّات عديدة متلبسة آخر الليل...

- بسبب المراودة؟

- وأشياء أخرى؟

-...مازالت محاضر الإيقاف في الأرشيف، لها ملفّ أسود

- وكيف كانت تنجو؟

- من فوق...

- هههههه.."الفوق" يتدخّل لحماية المومسات واللصوص... لا حول ولا قوة إلا بالله..."

- بلاد عجيبة

- يتدخّلون لها من قرطاج؟

- لا...لا...لن يصل شأنها إلى هناك. هي متاع لهؤلاء المحليين. يستخدمونها في شؤونهم الخاصة...هي متاع لسي عبد العزيز وشلّته...

- انظر هذا آخر محضر إيقاف لها ...

* * * *

محضر إيقاف

حوالي الواحدة فجرا بينما كانت دورية أمنية تقوم بمهامها الاعتيادية وقع الاشتباه في فتاة كانت في حالة سكر واضح وكانت تراود المارّة وقد تمّ إيقافها ولم تكن تحمل معها وثائق هويّة.

واستنادا إلى تصريحاتها فإنّ إسمها وفيقة بنت عياد، وهي تشتغل راقصة وموظّفة متعاقدة في إحدى الإدارات، وبالتحري معها تبين أنها كانت خارجة من محل سكني قريب يشتبه في كونه محلا معدا للبغاء السري وهو على ملك السيد.....وقد اعتاد استقبال بعض الشّخصيات الجهوية المعروفة للسهر وممارسة الرذيلة...ولم تعترف أنّ المحل مخصص للبغاء والخمور ونفت علمها بذلك وقالت إنّها تأتي إلى هنا بحكم علاقتها الشخصية بصاحب المحل...ويلاحظ أنها كانت في حالة سكر تام وترتدي لباسا خليعا وقد تفوهت على الأعوان بكلام بذيء وهددتهم.

وقد تم إطلاق سراحها ساعة بعد إيقافها بتدخل من سي عبد العزيز المسؤول بالتجمع وكان هذا الأخير اتصل بالسيد رئيس المركز هاتفيا وقد تمت الاستجابة لطلبه.

وعند الخروج بصقت هذه الأخيرة على زميل وتوعدته...

كان عبد الله المسرحي مغتاظا...

يردّد: "تبا للزمن"

زمن لخصي الرجال وهزمهم وإذلالهم...سي عياد لا يستحق ما جرى...

يسرّح عبد الله المسرحي ذاكرته البعيدة...أوائل الثمانينات حينما درّسه عياد...كان عياد قادما من بغداد بعد سنوات دراسة وكان شعلة لا تنطفئ...علّمنا معنى "الأمة العربية الخالدة" وعلّم الأجيال القضيّة والرجولة والشهامة. وبث في النفوس حب بغداد الشامخة بنخيلها وعماراتها العالية ومقاهيها الكبيرة وأسواقها الباذخة...علّمنا حبّ نازك الملائكة والسياب والجواهري وعبد الرزاق عبد الواحد...سي عياد الذي روّى الأجيال وعلّمها معاني الحياة وقيمها...سي عياد الذي كان يدخل المركز صارخا ومتوعّدا إثر ايقافات متتالية على علاقة بمساهماته في التحرّكات السّياسيّة والنقابيّة التي تشهدها البلاد منذ سنوات طويلة...

يقف اليوم أمام الأعوان خجولا يطأطئ الرّأس بسبب هذه المومس...

همس لي عبدالله:

"لا أبرّئ السّلطة من هذه الحكاية. إنّها الحرب المعنويّة التي يمارسها بعضهم. كانوا منذ سنوات يبحثون عن سبيل للتخلّص منه وإهانته وها قد وجدوا ضالّتهم...

* * * *

...اخرس

انتهت الرحلة وعادوا ظهر اليوم الموالي دون وفيقة...طوال الطّريق كان عكروت صامتا وشارد الذّهن ولم يكن مباليا بما يقولان له .

يسأله عمران: "كيف نعود دون وفيقة؟"

فيهره ويطلق نحوه ونحوها سيلا من اللّعنات...كان حميد يرد بابتسامات صفراء ماكرة ولا ينبس بكلمة...هاتفها مغلق وهاتف العفيف كذلك... عمران يشعر بقلق الانتظار...يزمجر عكروت:

"نعود أو لا نعود...هي لا تساوي عندي قارورة خمر...مومس ...لعة"

يردّ عمران مستغربا: "صديقتنا يا سي عكروت..."

يجيبه بصوت غاضب:

"اخرس...صديقتك وحدك...لا تذكرها أمامي مرّة أخرى وإلا أرسلتك ودست عليك..."

يخيّم على سيّارة العودة حزن كبير...واصل عكروت الصمت ولم يبال بشيء...يهمس عمران لحميد مستغربا:

- ووفيقة يا صاحبي؟

- لا تذكرها لاحقا على لسانك. هذا لا يليق بمسؤول كبير مثلك. أهلك من قبلكم لأن مكانتهم دنست. يجب عليك أن تكون في مستوى المسؤولية التي ستمنح لك...

- ولكنّها صديقتنا؟

- صديقتك وحدك...أنا لا أعرفها...

- أ إلى هذه الدرجة يجب أن تنكرها؟

- اسكت يا عمران. لقد دفعتها ثمنا لمنصبك. هي عند العفيف...

- العفيف

- نعم العفيف...هههه...خسارة الاسم الذي يحمله...

- ولكنه صديقنا...

يضحك حميد: "صديق نفسه...أمثاله لا أصدقاء لهم...هم أصدقاء لمن يدفع أكثر..."

عودة دب الصحراء

قال صاحبي:

ماذا لو زيّفنا الأوراق القديمة؟

فلتذهب الحقيقة إلى الجحيم وليسقط الرّقيب الدّاخلي. [illegible] لسنوات عديدة أكثر اشتغالا وشراسة من المقص الحكومي و[illegible] عمار 404 ومن المخبرين باختلاف أصنافهم...كان منتصبا [illegible] الوقت في الشوارع والمقاهي والاجتماعات والملتقيات و[illegible] وفي غرف المستشفى وفي قاعات الأقسام الدراسية. يراقب اللسان والقلم ويخضعهما لإجراءات صارمة بل يحرس الفكر والروح...قد تكون الابتسامة أو الكآبة غير مسموح بهما في بعض الأماكن. ثمة مواقع يجب أن تكون فيها مستقيما فاترا عنق وذقن حليق وابتسامة عريضة توزّع قبلك وتحيّاتك في كل صوب وحدب.

ينتصب الرقيب الداخلي مثل انتصاب مقاوم "الفيروسات" في الحاسوب. يطارد كل كلمة قد تجلب البلاء ويقاوم الانحراف ويحمينا من أن تؤدي بنا ألسنتنا وأقلامنا إلى التهلكة ويصدّ لكلّ رغباتنا في الانفجار وكتابة الممنوع وينقذنا من الوقوع في بحر تلك التهمة الخطيرة، تهمة الثلب والإساءة إلى الرموز التي أضيف إليها في السّنوات الأخيرة "ممارسة الفعل الموحش"...

كان دوره سلبيا ولكنه درّبنا كثيرا على أن نحسن التصرف في هوامش حرّيّة التعبير وتقسيطها تقسيطا بطيئا ولكنّ البعض عزاه بمجرد وصول خبر تحليق طائرة بن علي في الأجواء السعودية فتحوّل من لطيف ورقيق ومغرم بالعصافير الجميلة والزهور الفوّاحة

وجمع الطوابع البريدية وبطاقات التهنئة إلى مشاكس خطير يعرف كلّ الأسرار وينتهك كل المحظورات ولعلّ البعض لم يقنع بعزل هذا الرقيب بل أعدمه وأعدم معه الضمير والمبادئ وأصبح يخبط خبط عشواء. لا بدّ من تحيين الحكاية. فلتذهب الحقيقة إلى الجحيم. وليعدم رقيبك، ولتذهب القيم والمثل، ولتسقط المصداقيّة.

الجرائد والمجلات والمواقع الإخبارية تحيّن أخبارها وتعيد إليها الحياة وتجدّد وجودها، وجوه كثيرة حيّنت سيرها الذاتية المعروفة لدى الجميع، سحبت كل ما يمتّ بصلة إلى النظام السابق هروبا من "الترليم"...المواطنون العاديون أيضا حيّنوا طريقتهم في كتابة المطالب. اختفت من رسائلهم المطلبية عبارات "مناضل تجمعي دستوري وسليل عائلة دستورية مناضلة من الرعيل الأول..."

ها نحن نرى حقائق التّاريخ تتهاوى في هذه البلاد...من كانوا في القائمات الأولى للمناشدين والمنشدين، صاروا اليوم معارضين لا يشقّ لهم غبار...

هاهي الحكايات تنسج حسب الشّهوات. فلتفعلها وتزيّف الحقيقة مثلهم حتى تتصدّر المشهد...امح كل ما كتبت وهيّا نحرّف الحكاية ليصبح دب الصحراء زعيما وبقيّات من روحه وجثّته. لنشكّل الحكاية من جديد...وليكن...كان دب الصّحراء مناضلا وطنيا وتصدّى للدكتاتوريّة منذ نعومة أظافره وقتله النّظام. هكذا تكتسب الرّواية أهميتها ويتلقّفها النّاس ويصبح الأمر قضية وطنية ونصبح رفاق شهيد، لنا صوتنا في هذه البلاد.

دعك من الحقيقة يا صاحبي...حوّر الحكاية...حين سافر دب الصحراء إلى الخارج كان مناضلا مع من ناضل ضد النظام وحين عاد حاول التخطيط للإطاحة بالنظام...من قتلوه كانوا أمنيين

معروفين...السلطة أعطت أوامر تصفيته....صغ حكايتك وفق هذا التوجّه الجديد ودعنا من ضبابيّة الحقيقة..."

* * * *

عناوين غامضة

كنّا يومها قابعين تحت أشجار سمرقند التي حظرت السلطات التمتّع بظلالها لاحقا، وقطعتها بدعوى الحفاظ على جمالية المدينة التي لا أعرف كيف تفسدها أشجار سامقة وعالية يستظل تحتها النّاس...قيلولة صيفية حارقة. الوجوه تتلظّى من الحر والعطش. نساء وكهول يسارعون إلى محطة سيّارات الأجرة ومنها إلى المستشفى الجهوي.

سيّارة دار الثّقافة تهتف: "موعدكم الليلة مع فرقة الرقص العصري في حفل بهيج في نطاق المهرجان الصيفي....."

يعقّب أحدهم: "ومتى انقطع موعدنا مع الرقص. البلاد ترقص صباحا مساء..."

يهمس آخر: "ومن سيرقص؟والراقصة....؟"

ردّ آخر: "أكيد لم يطلعوا بعد...أو لعلّ الأمر مجرّد إشاعة..."

ينكبّ النّاس هذا الصّباح على الصحف...

- نعم هي هذه...هذه صورتها

يقول البعض في ثقة بالنفس قد تكون مصطنعة :

- أعرفها...

يتمتم البعض الآخر:

"فضحتنا هذه الصحافة. لا يكتبون إلا عن أخبار الجريمة. لا نقرأ عن سيدي بوزيد إلا أخبار الجرائم..."

يردّ صوت: "عمّ سيكتبون؟ تلك هي الحقيقة...هذه حوادث جدّت ...دعكم من الإخفاء...دعهم يكتبون..."

- ولكنهم يخفون أشياء أخرى...يخفون الآلام والصعوبات...

- وماذا تريدون منهم وأنتم لا تتورّعون عن الوقوف في الصّفوف الأولى للسّلطة؟

مقال الجريدة جافّ. ليس فيه غير صورة وبعض الأسطر. عنوان كبير كالعادة ومحتوى ضئيل...حكايتان تهزّان المدينة...

صباحا راج خبر اختفاء الراقصة وفيقة في ظروف غامضة وفي المساء جاء نعي دبّ الصحراء...كان خبرا مذهلا وفاجعا. دبّ الصحراء مات مقتولا...تدفّقت الجموع نحو قريته. جنازة حاشدة ...بكاء وهلع وأغمي على الحاج علي. لم يتحمّل رؤية المشهد المؤلم: قلذة كبده مسجّى للدفن على عجل. تعليمات صارمة بضرورة عدم فتح الصندوق والتعجيل بالدفن...أشاع بعضهم همسا:

"قتلوه لأنّه أصبح ينافسهم على الثّروة. رجل أعمال شاب تمكّن من مزاحمتهم في صفقات عديدة..."

ردّ البعض الآخر: "بل قتلته السياسة...منذ دخل عالم السياسة أصبح له أعداء..."

- وهل تقتل السياسة؟

- طبعا. السياسة قاتلة أحيانا...دبّ الصحراء اقترب من المشهد ولعب بالنّار. قيل إنه يدفع الأموال ليدعم هذا على حساب ذاك...يموّل حملات بعضهم الانتخابية ويريد مكانا بينهم. هو أيضا يحلم بالسّلطة...

ضحك البعض الآخر وقال هازئا:

"لا هذا ولا ذاك...مغامرات الشباب. لهو ومجون ومعارك حمرية..."

وظلّت الحقيقة غائبة وتصدّرت صورة دب الصحراء الصّحف أياما...

* * * *

في العاصمة. مصرع دب الصحراء في ظروف غامضة

علمنا والجريدة تحت الطبع أنّ رجل أعمال أصيل إحدى مناطق الوسط ويدعى دب الصحراء قد وجد مقتولا البارحة أمام منزله في العاصمة ولم تتوفّر تفاصيل عن هذه الجريمة الغامضة.

* * * *

إيقاف قاتلة رجل الأعمال بالعاصمة.

أوقفت السلطات الأمنية صبيحة الأمس قاتلة دبّ الصحراء وهي أصيلة جهته وتشتغل راقصة شعبية وكانت المتّهمة في حالة غيبوبة نظرا لإفراطها في شرب الخمر ويبدو أنها ترتبط مع القتيل بعلاقة عاطفية.

* * * *

تفاصيل جديدة عن مقتل دب الصحراء

اعترافات القاتلة

اعترفت قاتلة دب الصحراء بما نسب إليها من تهم وقد مثلت في حالة يرثى لها أمام قاضي التحقيق معبّرة عن صدمتها وسيتم عرضها على الفحص الطبي النفسي...

* * * *

اتضح اللغز...الراقصة وفيقة في السجن بتهمة طعن دب الصحراء طعنات قاتلة...سي عبد العزيز يلهث هنا وهناك بأوامر صارمة من مادام نبيهة...

"لا بدّ أن يفرج عنها فورا..."

تحقق المآرب بعد أيّام قليلة...جاءت أخبار جديدة...تمّ حفظ القضية وضاع دمك يا دب الصحراء...الأيادي الخفية طمست معالم الجريمة، مزّقت محاضر التحقيق الأصلية...حجبت الحقائق لينعم القتلة بالحرّيّة.

* * * *

قالت الصحف في الأيّام القليلة اللاحقة:

قضيّة مقتل دب الصحراء:

الإفراج عن الراقصة بعد ثبوت براءتها و إغلاق الملف...

أفرج قاضي التّحقيق عن الرّاقصة المتّهمة بقتل دب الصّحراء وذلك بعد استكمال التّحرّيات والأبحاث وعدم توفّر قرائن. وتمّ تسجيل القضيّة ضدّ مجهول.

* * * *

محضر التحقيق مع نادل النزل

س: هل شاهدت دب الصحراء وهو يدخل النزل؟

ج: طبعا

س: متى كان ذلك تحديدا؟

ج: لا أعرف تحديدا...أظن ذلك قبيل منتصف الليل

س: ماذا كان يرتدي؟

ج: سروال "دجينز" و"سورية"خضراء...

س: هههههه ...حتى هو يشبه القذافي

ج: هههههه...صحيح...كان يبدو عليه التوتر والغضب...

س: أين كنت أنت وقتها؟

ج: كنت أفتح قارورة "ماغون "طلبها عكروت...

تمتم العون: "...كم يشرب هذا العكروت...وصلتنا عنه تقارير من جهته..."

عقّب العون: "القادمون من هناك يشربون كثيرا. يشربون الخمور في الأكياس"

س: هل كان دب الصحراء يحمل سلاحا أبيض معه؟

ج: لم أشاهد...كان يحمل في يده جهاز هاتف وعلبة سجائر وكان سكرانا بدوره...

س: وماذا لاحظت على الجماعة حينما شاهدوه؟

ج: العفيف لم يتأثر في البداية لأنه لا يعرفه وانهمك في مداعبة الراقصة...

س: وعكروت؟

ج: الحقيقة سمعته يزفر ويقول "ربي يبيتها على خير"

س: والراقصة؟

ج: كانت مذعورة وترتعد...

س: ...وماذا جرى لحظة الدخول؟ كيف تطورت الأمور؟

ج: وقف عكروت مهللا ومرحبا...لم يأبه به دب الصحراء... دفعه وهو يحاول مصافحته وتقبيله والترحيب به...تسمر عفيف في مكانه حائرا. اتجه دب الصحراء مباشرة نحو وفيقة...صفعها ثم جذبها من شعرها وهو يصيح: يا مومس...يا كلبة...يا...يا... اقتادها نحو الباب ولحق به عفيف وعكروت وهما يتعثران..

س: ثم؟

ج: لا أعرف ما جرى بعد ذلك...عدت إلى عملي...لم أتوقع أن يحصل هذا الأمر...هذه المشاجرات كثيرة وتحدث كل ليلة."

* * * *

الرسالة اللغز...

هل كانت رسالة بريئة؟ أ أرسلها صاحبها حبًا لدبّ الصحراء أم انتقاما منه ومن كلّ المجموعة؟

هل كان صاحب الرسالة التي عثروا عليها في هاتف دبّ الصحراء خبيثا إلى درجة بعيدة وأطلق رصاصته في اللحظة المناسبة؟

هل أراد صاحب الرقم الخفيّ أن يصطاد الجميع برصاصة واحدة؟ ولماذا لم يبحثوا عنه ويحقّقوا معه؟

وصلت الرسالة فقفز دبّ الصحراء وشغّل محرك شاحنته "الديماكس" على عجل وطار نحو التّل مصمّما على الثأر... المومس تسخر مني... تعبث بشرفي، سأخرج لها من حيث لا تدري...

هل أعمته لهذه الدرجة؟ هل أصبح عاشقا لها؟ كيف يسقط الرجال في لمح البصر والعمى بصيرتهم؟ ماذا يحدث لهم فجأة؟! لم يكن دب الصحراء الأول أو الأخير الذي يرضخ للعبة وينسى كأنّ شيئا لم يكن... كيف ننسى الليالي الماجنة وسهرات دار مادام نبيهة؟ ما أعرفه أنّه حدّثني عن عهرها وعن مغامراته معها هناك في وكر سري من تلك الأوكار التي تنشط في غفلة من السلطة وحدّثني عن كثيرين يتردّدون على هذا المكان...تلك البائعة التي تبدو محترمة في محلّ تجاري وذلك الموظف الحازم الذي يقابلك مكشرا مبصبصا ذيله: "المدير موش هنا أرجع غدوة"

وآخرون تراهم في الصّفوف الأولى كلّهم يمرّون من هنا...حدّثني كثيرا عن وفيقة بنت عياد الراقصة الكبيرة التي تفعل العجائب هناك عرفها وتذوق جسدها وذاقت أمواله الطائلة. ولكنّه لم يحدّثني عن سقوطه بين براثنها.

كان مدلّلا وثريا ولكنّه لم يكن خبيرا بالنساء. توقعه ضحيّة من إحداهن. كانت وفيقة تلعب لعبتها وتسلبه أمواله ولعلها كانت تتهيأ للزواج منه في نهاية المطاف...لقد صارت مثل هذه الوقائع مألوفة. هؤلاء يعبثن ويمارسن الرذيلة ثم يصطدن أغنى الرّجال وأطيبهم...كشف لي أحد الأصدقاء بعد أيّام أنّ دبّ الصحراء كان على وشك إعلان زواجه منها وأنه أغرم بها غراما شديدا وكان يهيئ لها متجرا كبيرا. تلك صفقته مع "مادام نبيهة" ...يتزوّج وفيقة وتفتح له أبواب السلطة...

"كلّهم مرّوا من هنا".

كانت تقسم له...هذا البيت منعطف هامّ وطريق الصّفقات السياسيّة. يزدهر في مواسم التعيينات...اعلم يا دبيب أنّ طريق النّجاح يبدأ من طاعة مادام نبيهة والتودّد لها...

دبّ الصحراء أغرته السلطة ووافق على اللعبة...وفيقة أعلمته أنها دخلت عصر الطاعة وأنّ الماضي انتهى وهي تنتظر اليوم السعيد...المهم أن يهنأ ويدفع. نسي المثل الشعبي الشهير وصدّق كلامها وبدأ يتهيأ...

ها قد تزوّجته وتزوّجها وأسكنته القبر...مساعي كبيرة قام بها سي عبد العزيز ومادام نبيهة لتبرئتها وإطلاق سراحها. سجلت القضيّة ضدّ مجهول وأرسلت مادام نبيهة سائقها ليعود بها معزّزة مكرّمة وكأنّ شيئا لم يكن.

* * *

دب الصحراء يعود

عفيف يجتمع مع بأنصاره، يحثّهم على المشاركة في الوقفة الاحتجاجيّة المبرمجة لمساندة أصدقاء دبّ الصّحراء ويصرخ فيهم: "لا بدّ من د ـولة العدل والعدالة...حزبنا مع كل المطالب الشعبية..يجب أن نكون في كل موقع وفي كل التّحرّكات وفي كل المقاهي والحا ـ نات والشوارع..يجب أن يتواجد حزبنا في كل موقع ويتبنى كل قضية حتى يحقق انتشاره..."

ردّ أحد الحاضرين: "ولكنّ إمكانياتنا المالية منعدمة..."

ابتسم عفيف: "ما أوصي به لسانا لا يتطلب مالا ولا يتطلب تجهيزات أو ضما نات. ـ فقط لسانا لا يتعطل ولا يصمت... تكلّموا ولا تفكّروا في التضحية...صرّحوا للقنوات والإذاعات والصحف...نحن لسنا حزبا متخلفا...شعارنا الانتخابي القادم سيكون اللسان...لا تتصوروا أن كل الساسة يتقدّون ما يعدون به هم فقط يقولون كلاما للحظة لتسجيل حضورهم في المشهد أمّا التنفيذ فحكاية أخرى ـ ..لسنا في السلطة لننفّذ...نحن مجرّد حزب، اللسان يا سي عثمان...حثّهم على الحديث في كل مكان. ـ ."

* * *

(منقول عن إذاعة جهويّة)

نفّذ عدد من نشطاء ـ المجتمع المدني وقفة احتجاجيّة أمام مقرّ الولاية مطالبين بالكشف عن حقيقة مقتل دب الصحراء في العاصمة منذ أعوام وبمطالب هؤلاء بتنفيذ الوعود التي قطعتها الحكومة سابقا والمتعلّقة بتشكيل لجنة تحقيق محايدة وعبّروا عن

مطلبهم باعتبار دب الصحراء شهيدا بناء على أنّ مقتله تمّ في ظروف سياسية غامضة.

وشهدت الوقفة زيارة وفد رفيع المستوى يتقدّمه [illegible] السياسي والمحلّل الإعلامي عفيف وممثّله الجهوي [illegible] الشرقي والسيدة نادية الشرقي رئيسة جمعية الشهيدة وردة، [illegible] مي العفيف لإذاعتنا بأنه يعتبر قضية دب الصحراء قضية الشخصية وهو يستعدّ وحزبه للقيام بعدّة إجراءات هامة إذ سيتم تشكيل لجنة مساندة وعقد ندوة صحفية في العاصمة لطرح القضية أمام الرّأي العام"

صفّق الحاضرون للعفيف...تنهدت وضربت كفا بكف... هكذا تدور الدنيا ويتم تبادل الأدوار...

قال جليسي: "لماذا تتأفف؟ يبدو أنّ عفيف يزعجك وهذا لأسباب إيديولوجيّة. الرجل شريف وحر وصوته يخدمنا بعد الثورة..."

صيد في المياه العكرة

ذات ظهر غائم، مرّت الجنازة حاشدة أمام مقهى سمرقند متّجهة صوب مقبرة المدينة. كان عبد الله المسرحيّ من بين الذين يحملون النّعش الأخضر والدّموع الغزيرة تتهاطل من عينيه. وكانت أعداد المشيّعين تتزايد. قدم العشرات من أهله من القرية منذ الصّباح الباكر وتوافدت أعداد غفيرة من تلاميذه القدامى ممن درّسهم قبل أن تحلّ به مصائب الدّهر وعجّت الجنازة بزملائه الذين درّس معهم سنوات طويلة وتقدّمت بعض الوجوه النقابية البارزة في الصفوف الأولى. وانضمّ بعض العابرين وجلساء المقاهي ممّن أثّرت فيهم الجنازة المهيبة...رحم الله "سي عياد" وأسكنه فرادبس جنانه...ارتاح من هذه الدنيا الظالمة...لم ينجده أحد، مات مقهورا...هكذا تعالت التّمتمات وفي القلوب غيض كبير. الذاكرة مازالت تستحضر ما جرى له وما مرّ به من محن والألسن تلعن ابنه الراقصة التي دمّرت حياته...

قال أستاذ قديم: "هذا الرّجل لا يوجد مثله...تذكره الشوارع وساحات النضال ومقرّات اتحاد الشغل...ولكنّها الدّنيا..."

ردّ آخر:

"يمكن أن نعتبره شهيدا حقيقيا. إنها الشهادة ببطء. في تلك السنوات القاحلة كان النظام يفكّر في الانتقام من عيّاد فجاءتهم فرصة سانحة. كانت "مادام نبيهة بنت النخاس" مستعدّة لتدفع الملايين لإخضاعه وتركيعه. وجدوا "وفيقة" طعما لإسقاطه ونجحوا...كانت بنتا صغيرة وكانت لديها مشاكل عائلية فلم تستطع أن ترفض العالم المغري الذي صنعوه لها..."

تمتم الجماعة وأومؤوا برؤوسهم موافقين على ما همس به وجدّدوا الترحّم عليه وواصلوا سيرهم حتى المقبرة...فتحت صفحتي الاجتماعيّة، اعترضتني صورة عياد على الصفحة الشخصيّة لوفيقة. ذهلت فهي التي لم تعترف به منذ أعوام وظلّ يلاحقها دون جدوى حتى فقد صوابه وتاه في المدينة...مات المسكين في الشارع قرب بيته. وجدوه جثة هامدة مقرفصا تحت جدار...قد فات الميعاد يا وفيقة...تدويناتك تطير من مكان إلى مكان وتخلّف الدموع الكثيرة لكن قضي الأمر...إنه الموت الذي لا ينتظر إذا جاء. لماذا ننتظر حتى يأتي لنعتذر بصدق لمن ظلمناهم وأحزنّاهم وكسرنا خواطرهم؟

تكتب وفيقة بحرارة وبحرقة وألم...ترثي أبا عزيزا فقدته حيّا منذ أعوام طويلة. وتشعر لأوّل مرة بالندم. لقد جرفها التيّار وتناثرت الأحداث، ولم تتمكن من تدارك ذلك الضياع.

يقال إنّها أدركت الرّدهات الأخيرة من زمن تهيئة الجثمان. اقتحمت البيت فجأة وأثارت موجة من البكاء والعويل. تهامس بعض الأهل والأجوار داعين إلى طردها لكنّ بعض عقلائهم رفضوا وسمحوا لها بالدخول وإلقاء نظرة وداع على الجثمان. وسقطت مغشيّا عليها في تلك اللحظات المؤثّرة...تعانق وفيقة موسم حزن جديد. تقرّر اعتزال الرّقص وولوج صفحة جديدة في حياتها.

ردّدت بعض الألسن أنّها ارتدت حجابا وغادرت المدينة نحو قريتها. أخذها أحد أعمامها لتقيم معه...بعد أيّام شرعت في مراجعة سنواتها وارتأت أنّ صمتها عن حقيقة مقتل دبّ الصّحراء ذنب معلّق برقبتها فقرّرت قول الحقيقة كاملة:

هاتفتني مادام نبيهة وطلبت منّي الحضور على عجل...أعلمتني بمهمة جديدة تضاف إلى مهامي...بداية من الليلة يجب

أن نبدأ لعبتك مع دبّ الصحراء...ليكن كأمير عربي ولتطوفي به كجارية وديعة. يجب أن تسلبي عقله وروحه ويصبح رهن إشارة منك...هذه أوامر ضرورية لا يمكن أن يقف ضدّها أحد. لو كنت شابّة لأقدمت على المهمّة بنفسي...يجب أن ينال درسا ويجب أن يكون عبرة لغيره من المتطاولين...

كانت مادام نبيهة تزمجر ووجهها محمرّ من الغضب:

"هذا الدب من أين جاء؟ سألقّنه درسا لن ينساه. يتطاول ويلعب معنا الغميضة، لا يعرف مخالبنا...أريدك أن تنفّذي ما أطلب منك...دبّ الصحراء هو الآخر يريد أن يصبح صوتا في هذه الجهة..."

تدور مادام نبيهة في الغرفة ويرتفع صوتها..."يريد أن يطيح بنا...يتآمر علينا وعلى الحزب وعلى رجال الحزب. يموّل المعارضين ويجالسهم في المقامي. ينقل إليهم عالمنا الخاص. لقد بلغتنا معلومات مؤكّدة..."

بعد ساعات انطلقت اللعبة...يدخل دب الصحراء فأجلس حذوه وأبتسم له. التقطني قلبه...صار يهذي بي...مادام نبيهة أيضا بدأت تظهر له التودد والتقرب ونصّبت نفسها راعيا لعلاقتنا. دفعت بنا إلى الاتّفاق على الزواج.

لان دب الصحراء وانشغل بالحكاية في حين كنت أسخر منه وأغنم منه وكانت مادام تنتظر الضربة القاسمة له. كانت تخطط للإيقاع به. لم تفكّر في القتل في حقيقة الأمر ولم تأمرني بذلك. كلّ ما كنّا نريده هو إيداعه في السّجن. لم نخطط لشيء...كانت مادام عازمة على المضي في اللعبة...تكرّر دوما "لابدّ أن نلقنه دروسا لا تنسى...كي لا يتجرّأ على أسياده..."ولكنّها لم تفكّر في ما جرى ولا يد لها...أنا بدوري لم أكن قاتلة ولم أسهم في القتل وربّما أحزنني...

رويت للمحقّقين ما جرى لكنّهم حفظوا الملفّ برمّته...

* * * *

احتضنتني مادام نيها بحرارة وبكت طويلا.

قالت لي إنّها لم تنم منذ بلغها الخبر وإنّها ذرفت دموعا غزيرة من أجل حريتي، وإنّها كانت مستعدة لتدفع الملايين من أجلي... كنت أحدّثها عمّا جرى وأبكي...فتحت عيني فإذا بي هناك... وجوه شرسة متوتّرة وأقدام غليظة...لعنات ولكمات ...كان سجّان غليظ يقودني بغلظة وتمتم: "مومس...كلبة"

قادني إلى مكتب المحقّق ودفعني على مقعد...نظر المحقق نظرة شرسة...وتمتم: "راقصة...هه"...

ثم زعق في وجهي:

"الحقيقة أو الحفل."

ظللت هناك أيّاما تكرّر أسئلتهم ولعناتهم ولكنّي لست قاتلة..

* * * *

كتبت إحدى الصحف:

خطير: زعيم حزب متورط في عملية قتل دب الصحراء... اعترافات خطيرة للراقصة...

أذن قاضي التّحقيق بإعادة فتح ملفّ قضيّة مقتل دبّ الصحراء منذ أعوام وذلك بناء على ما توفّر من معلومات نشرتها المدعوّة وفيقة بنت عيّاد التي تمّ إيقافها منذ أعوام للاشتباه في تورّطها في القضيّة على صفحتها الاجتماعيّة. وقد ورد في هذه الاعترافات قولها:

"...دفعني دبّ الصحراء داخل شاحنة "الديماكس" وأوصد الباب بعنف وانبرى يهذي...الليلة نهايتك يا مومس...يا كلبة الكلاب...يا حقيرة...يا...يا خائنة...أهذا حبك؟ أهذا اتفاقنا؟ تخونيني مع هؤلاء؟"

...سارت الشاحنة في دروب لا أعرفها وهو يزمجر ومن حين لآخر يلكمني أو يصفعني...حين كان بصدد فتح الباب أدرت سيّارة كانت تتبعنا...هي سيّارة عكروت...نزل عفيف واتّجه نحونا وظلّ عكروت في مقعده. في حين كمنت داخل الشاحنة ولم أنزل مثلما أمرني...اشتدّ الشجار وتعدّدت اللكمات. كانت معركة عنيفة في الظلام. لم أكن أعرف من يضرب من...كان المكان مظلما وكنت أرتجف، خرّ دب الصحراء على الأرض... سمعت عكروت يجذب عفيف بسرعة:

"هيا أسرع...جثة كلب..."

همست بالركوب معهما. بصق في وجهي عكروت وغرمل... ظللت أتخبّط في مكاني ودم دب الصحراء يتدفّق أنهارا. تحاملت على نفسي وهربت، بتّ ليلتي أتسكع في ظلام الأنهج المجاورة وأنا على وشك الانهيار...

* * * *

راج الخبر واضحا لا لبس فيه:

عفيف قاتل دب الصحراء...

احتدّ اللّغط وخرج عثمان الشرقي ببيان تلته إذاعة محلية وردّده بعض "الفيسبوكيين" باستهزاء:

"تروّج بعض الصفحات والوسائل الإعلامية المأجورة والمعادية للثورة والكرامة إشاعات تستهدف وئيس حزبنا وتمسّ من كرامته وشرفه. الغرض منها التشويش عليه في الاستحقاقات الانتخابية

القادمة والانقضاض على المسار الثوري والتنصّل من قضايا
الصحراء العادلة. وبهذه المناسبة نذكّر أنّ حزبنا وبالحاح من
عفيف كان الحزب الوحيد الذي بادر بتكوين لجنة للمساند
وشارك أهالي الفقيد وأصدقاءه تحرّكاتهم وأيّدها. وسيواصل
القيام بهذا الواجب ولن يعنيه صيد بعضهم في المياه العكرة..."

الفهرس

- فيض من غيض[بقلم: محمد الجابلّي].... 5
- سكاكين 15
- قيل وقال 37
- قرأتها يا رياض 48
- أوراق ينكرها عفيف 57
- نادية الشّرقي 69
- ...هل كان عثمان وهما؟ 79
- دبّ الصحراء 102
- وفيقة بنت عياد تروي حكايتها 110
- من أوراق همّام السمرقندي 116
- عودة دب الصحراء 138
- صيد في المياه العكرة 149

رواية تقول إننا في "زحامنا الثوري" فقدنا براءتنا وأن "العباءة المهترئة" لا قدرة لها على ستر عورتنا. "أحاديث جانبية" هي من صميم خطابنا المغيب. حين غيبنا الفكر والمعرفة والإبداع وانسقنا وراء راقصي وراقصات المشهد المسطح ذاك الذي غاب منه الخيال والحلم وغابت منه الممكنات...لابدّ أن نطفئ الأنوار حتى نرى جمال القمر. فبعد غنائية الثورة وزحامها الوجداني كان لا بدّ من نصوص شجاعة "مجرد الحساب" خلقا وخيالا يعيدان ترتيب ما تداخل واختل في "هبتنا" المتسرعة. فالمبدعون يقفون هناك على حافة شائكة يحملون فانوس الحقيقة بنسبيتها ويقلبون النظر تحت عين فاحصة يجيلها عقل ناقد ويوقد بريقها خيال خلاق. وفي مسيرتهم تلك - يصححون ما اختلّ من حالنا ويكشفون بفضائحية وشجاعة مزيفي التاريخ بعقوده ونقوده...ختاما نذكر بما قاله الكاتب الألماني "غنتر غراس" في حفل تتويجه بجائزة نوبل: "قدر الكاتب الحقيقي أن يقف دوما في صف الخاسرين...لأن صف الخاسرين هو صف الحقيقية المغيبة في التاريخ البشري"...

الأستاذ والروائي محمد الجابلي

من مواليد22/4/75 بسيدي بوزيد
*باحث دكتورا في اللغة والأدب العربي
بكلية الآداب بالقيروان اختصاص سرديات
*أعد أطروحة الماجستير حول حوارية
خطاب الرواية في ليلة الإفك لنصف الوهايبي
*ينشر مقالاته في صحف ومجلات عربية وتونسية
*صدر له:هنا لندن ذات مساء/صالح البغدادي
(قصص) علالة الزيلي (رواية) سعيد مهران
نبوءة الرواية (نقد) - قراءات في أدب ناجي الجوادي (نقد) لا
ثقافة بالخراسة (مقالات)
*ساهم بورقات نقدية وبحثية في ندوات وملتقيات
مختلفة

9 789938 390407

الثمن: 15 د/ت